

## صدى تصريح بلفور في الأوساط اليهودية والعربية والعثمانية والدولية 1917-1920

### The Reverberation of the Balfour Declaration in Jewish, Arab, Ottoman, and International Circles 1917–1920

#### مقدمة

منذ اندلاع الحرب العالمية الأولى في آب/ أغسطس 1914، اتخذت اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية مقرها العام في برلين، وتولى رئاستها يهودي ألماني هو أوتو فاربورغ Otto Warburg. وأنشأت لها مكتباً في إسطنبول تولى رئاسته ديفيد ياكسون David Jacobson، ومكتباً في لندن تولى رئاسته ناحوم سوكلوف Nahum Sokolow أول الأمر، ثم حل محله الدكتور حاييم وايزمان Chaim Weizman أستاذ الكيمياء الصناعية في جامعة مانشستر Manchester، ومكتباً في نيويورك برئاسة القاضي في المحكمة الأمريكية العليا لويس برانديس Louis Brandies، ومكتباً في كوبنهاغن، باعتبارها عاصمة للدنمارك الدولة المحايدة في هذه الحرب، لتسهيل الاتصال بالممثلين الدبلوماسيين للدول المتحاربة. وفي كانون الأول/ ديسمبر 1914، أعلنت اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية في اجتماع عقدته في كوبنهاغن أنها تقف على الحياد من النزاع الدولي القائم. وكان هذا الإعلان بمنزلة مناورة سياسية ترمي إلى إشعار الأطراف المتنازعة بأنها لن تلتزم إلا مع من سيقدم لها ما تطلب من وعود وعهود<sup>(2)</sup>.

وفي اجتماع المجلس الصهيوني العام الذي عُقد في لاهاي في 24 آذار/ مارس 1916، عرض الزعيم الصهيوني ديفيد ياكسون، لأول مرة، موضوع إصدار تصريح من الحكومتين الألمانية والعثمانية يتضمن تعاطفهما مع الأماني الصهيونية في فلسطين، غير أن المجلس اعتبر هذا الاقتراح سابقاً لأوانه. والواقع أن القيادة الصهيونية شعرت، بعد العرض الذي تقدمت به دولتا الوسط (ألمانيا والنمسا - هنغاريا) في 12 كانون الثاني/ يناير 1916 لإبرام الصلح مع الحلفاء، أن الوقت قد حان لاستصدار تصريح من الحكومة الألمانية يؤيد الأطماع الصهيونية في فلسطين.

ولما تشكلت حكومة عثمانية جديدة برئاسة طلعت باشا في مطلع عام 1917، سارعت اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية إلى الاتصال بوزارة الخارجية الألمانية، تطلب منها بذل المساعي لدى الحكومة العثمانية الجديدة للحصول على بيان مؤيد للأماني الصهيونية. ولما حُوّل الطلب إلى السفير الألماني في إسطنبول رايشارد فون كيلمان Reichard Von Kuelman، أعرب عن تحفظه عليه. وبعث السفير برسالة إلى المستشار الألماني بيتمان هولفيغ Bethmann Hollweg، في 26 آذار/ مارس 1917، ذكر فيها أن صلة الصهيونية

1 عمل أستاذاً للتاريخ الحديث بقسم التاريخ في كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية في الجامعة الأردنية. وعمل دبلوماسياً في وزارة الخارجية الأردنية في عدد من الدول العربية خلال الفترة 1962-1971، وشغل مناصب علمية عديدة؛ من بينها رئيس جامعة مؤتة (1981-1989)، ورئيس جامعة اليرموك (1989-1993).  
Previously worked as Professor of Modern History at the History Department, Faculty of Social Sciences and Humanities, Jordanian University and as a diplomat in the Jordanian Foreign Ministry in a number of Arab states 1962-1971. He has held many academic posts, including President of Muthah University (1981–1989) and Yarmouk University (1989–1993).

2 علي محافظة، العلاقات الألمانية-الفلسطينية، 1945-1841 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981)، ص 160-161.

ببهدوء العالم ضعيفة، وأن دورها في التأثير في موقف الولايات المتحدة الأمريكية لم يعد له أي قيمة، بعد أن قطعت علاقتها الدبلوماسية مع ألمانيا، ووقفت في صف الأعداء<sup>(3)</sup>.

أما في بريطانيا، فقد ركز مكتب المنظمة الصهيونية في لندن برئاسة ناحوم سوكولوف منذ قدومه إليها في أواخر عام 1914 على وزارة الخارجية البريطانية التي رفضت استقباله، في حكومة هربرت أسكويث Herbert Asquith، وكان يتولاها إدوارد غراي Edward Grey. وبررت وزارة الخارجية البريطانية موقفها بأن لديها معلومات كافية عن الصهيونية، ولا ترى حاجة إلى لقاء سوكولوف. وكانت حكومة أسكويث تضم يهوديين أولهما هربرت صموئيل Herbert Samuel؛ وهو صهيوني الميول، وابن خاله إدوين مونتاجو Edwin Montagu المعارض للحركة الصهيونية.

سعى القادة الصهاينة في بريطانيا لدى القيادات السياسية والدبلوماسية والعسكرية البريطانية لكسبها إلى جانبها وتبني المشروع الاستعماري الصهيوني في فلسطين. واستعملوا نفوذ العلماء والصحافيين ورجال المال اليهود، ولجؤوا إلى مختلف الأساليب والوسائل لكسبهم. ولما تولى حاييم وايزمان قيادة حركتهم، نجح في مهمته، بعد أن تعرّف إلى ديفيد لويد جورج David Lloyd George وزير المجهود الحربي في وزارة أسكويث، وأصبح مستشاراً له في تصنيع مادة الأسيتون Acetone الضرورية لصناعة المتفجرات في أيلول/ سبتمبر 1915. وعُيّن أيضاً في وزارة البحرية التي كان يتولاها آرثر بلفور Arthur Balfour مستشاراً. وأقام وايزمان علاقات وثيقة مع هربرت صموئيل وديفيد لويد جورج وأرثر بلفور وجيمس دو روتشيلد James de Rothschild والصيرفي البريطاني عضو مجلس اللوردات وتش. ب. سكوت Ch. P. Scott رئيس تحرير صحيفة **ذي غارديان** *The Guardian*، ومارك سايكس Mark Sykes الوزير الجديد في حكومة ديفيد لويد جورج، وكسبهم لمساندة الحركة الصهيونية وتبني مشروعها الاستعماري في فلسطين<sup>(4)</sup>.

## السعي الحثيث لإصدار تصريح بلفور

استقالت حكومة أسكويث وتشكلت حكومة جديدة برئاسة ديفيد لويد جورج في 5 كانون الأول/ ديسمبر 1916، وعُيّن آرثر بلفور المتعاطف مع الحركة الصهيونية وزيراً للخارجية. وقال بلفور لهارولد نيكلسون Harold Nicolson، وهو من كبار موظفي وزارته: "اليهود أكثر أجناس البشرية موهبة منذ اليونان في القرن الخامس، فقد نفوا وتشردوا واضطهدوا. إذا استطعنا إيجاد ملاذ لهم ووطن آمن في بلادهم، عندها ستفتح عبقريتهم وتزهر وتنشر. سيجد يهود الغيتوات في أوروبا الشرقية المضطهدون حياة جديدة في فلسطين، وسيطورون لأنفسهم هوية جديدة وقوية. وسيجعل اليهودي المتعلم القادم من جميع أنحاء العالم من جامعة القدس مركزاً للحياة الثقافية ورعاية مشعة للعلوم والفنون"<sup>(5)</sup>.

بعد إبرام اتفاقية سايكس-بيكو بين الحكومتين البريطانية والفرنسية، في 16 أيار/ مايو 1916، لاقتسام منطقة الهلال الخصيب العربية بينهما، بذل مارك سايكس جهده لمساعدة الحركة الصهيونية. وباعتباره كاثوليكيًا مخلصًا لكنيستته، سعى في ربيع عام 1917 لإقناع البابا والسلطات البابوية في روما بالتعاطف مع الحركة الصهيونية. ومن روما سافر سايكس إلى فلسطين لإقناع المسؤولين في رهبة الفرنسيين وبطربرك اللاتين في القدس بالتعاون مع الحركة الصهيونية.

3 المرجع نفسه، ص 161-169.

4 Leonard Stein, *The Balfour Declaration* (Jerusalem and London: The Magnes Press, The Hebrew University/ The Jewish Chronicle, 1961), pp. 117-120, 127-128, 131, 137, 147, 153-156.

5 Ibid., p. 157

كان أمام بلفور، في 13 حزيران/ يونيو 1917، مذكرة من إعداد أحد مستشاريه يقترح فيها أنه حان الوقت لتلبية أمني الصهيونية، وتقديم تأكيد بأن حكومة جلالته في تعاطف تام مع أمني الصهيونيين. وفي هذه الأثناء التقى وايزمان بالسفير الأميركي لدى الدولة العثمانية هنري مورغينثاو Henry Morgenthau في جبل طارق في نهاية حزيران/ يونيو 1917، بناءً على طلب وزير الخارجية الأميركي روبرت لانسينغ Robert Lansing؛ لربط الصهيونيين بجهود التسوية التي يقوم بها في أوساط الحكومة العثمانية<sup>(6)</sup>. ولم يعد وايزمان إلى لندن إلا في 22 تموز/ يوليو 1917.

وأثناء غياب وايزمان تعدّرت إعداد صيغة صهيونية لتصريح الحكومة البريطانية بشأن الأمان الصهيونية ليقدم إلى بلفور. وكان وايزمان قد اتفق مع اللورد روتشيلد، قبل مغادرته لندن، أن تبدأ الخطوة الأولى من قبل وايزمان وروتشيلد، بحيث يقترح روتشيلد الصيغة، أو الصيغ، التي تُقدّم إليه لبيان رأيه فيها، ثم ترسل هذه الصيغة إلى بلفور الذي سيرضها بدوره على مجلس الحرب البريطاني The War Cabinet للموافقة عليها، ومن ثمّ تتم إعادة الصيغة الموافق عليها من مجلس الحرب إلى بلفور الذي سيرسلها في رسالة موجهة إلى اللورد روتشيلد.

تلقى بلفور الصيغة التي أقرها روتشيلد في 18 تموز/ يوليو 1917، وهي:

"عزيزي السيد بلفور،

وأخيراً أستطيع أن أرسل إليك الصيغة التي طلبتها مني. إذا كانت حكومة جلالته سترسل إليّ رسالة وفق خطوط هذه الصيغة. وإذا كانت كذلك، وأنت توافق عليها، سأرسلها إلى الاتحاد الصهيوني لإعلانها في اجتماع يعقد لهذه الغاية. أسف أن أقول إن خصومنا بدؤوا حملتهم علينا بمناورة كثيفة جداً، أي بإثارة التشويش، وعداء اليهود البريطانيين لليهود الأجانب. لقد بدؤوا ذلك يوم الأحد السابق حينما تحدوا في مجلس المندوبين الذين انتخبوا حديثاً، إن كانوا جميعاً من مواليد بريطانيا وأنا منهم.

المخلص روتشيلد"<sup>(7)</sup>.

أما مسودة التصريح، فهي:

"1. تقبل حكومة جلالته المبدأ بوجوب جعل فلسطين وطناً قومياً للشعب اليهودي.

2. سوف تبذل حكومة جلالته أقصى جهودها لضمان تحقيق هذا الهدف، وسوف تبحث في الأساليب والطرق الضرورية لتحقيق ذلك مع المنظمة الصهيونية".

مرت ثلاثة أشهر على النظر في هذه المسودة التي عدّلت بصورة جذرية في تصريح بلفور.

عمّمت رسالة روتشيلد ومسودة التصريح المرفقة بها على الوزراء البريطانيين المعنيين في بداية آب/ أغسطس 1917. ونظر مجلس الحرب فيها في 3 أيلول/ سبتمبر 1917، وأقر مجلس الحرب صيغة تصريح بلفور التي أعدها وزير المالية ألفرد ميلنر Alfred Milner في اجتماع المجلس في 31 تشرين الأول/ أكتوبر 1917. وفُوض بلفور بإبلاغها إلى روتشيلد في الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر 1917. وفيما يلي نص تصريح بلفور والرسالة المرفقة به:

"عزيزي اللورد روتشيلد،

6 جوني منصور، مثنوية تصريح بلفور (1917-2017): تأسيس لدولة وتأشيرة لاقتلاع شعب (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2018)، ص 162.

7 Stein, pp. 462, 465, 470.

يسرني جداً أن أنقل إليكم، نيابة عن حكومة جلالته، التصريح التالي الذي يتضمن التعاطف مع الأماني اليهودية الصهيونية الذي قُدم إلى مجلس الحرب وأقره.

تنظر حكومة جلالته بعين العطف إلى إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وبذل خير مساعيها لتحقيقه، شريطة أن يكون مفهوماً عدم إلحاق الضرر بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين، أو بالحقوق التي يتمتع بها اليهود في البلدان الأخرى وبوضعهم السياسي فيها.

وأكون ممتناً لو أبلغتم الاتحاد الصهيوني بهذا التصريح.

باحترام

آرثر جيمس بلفور

2 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917<sup>(8)</sup>.

نُشر تصريح بلفور هذا في الصحف البريطانية في 9 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917. واحتفل الصهاينة اليهود والبريطانيون من أنصارهم في دار الأوبرا بلندن في 2 كانون الأول/ ديسمبر 1917. وجلس على المنصة الوزير السابق هربرت صموئيل، ومساعد وزير الخارجية البريطاني روبرت سيسل Robert Cecil، ومساعد وزير الحرب السير مارك سايكس، واللورد جيمس روتشيلد وحاييم وايزمان وناحوم سوكولوف. شكر روتشيلد الحكومة البريطانية وقال: "نلتقي في أهم مناسبة في تاريخ اليهود في السنوات الألف والثمانية مئة الأخيرة. نحن هنا لنشكر حكومة جلالته الملك على التصريح الذي يؤشر إلى مرحلة جديدة وعهد جديد. فلأول مرة، منذ الشتات، تلقى الشعب اليهودي استعادة مكانته الخاصة به بتصريح من إحدى الدول الكبرى". وتحدثت بقية الصهاينة وأنصارهم في هذا الاحتفال، وتبادلوا التهاني<sup>(9)</sup>.

لقد ساهمت في إصدار هذا التصريح المنظمة الصهيونية العالمية بمختلف فروعها ومكاتبها بصورة مباشرة، أو غير مباشرة. وقد بين المؤرخ البريطاني جوناثان شنير Jonathan Schner، في كتابه: **تصريح بلفور: جذور الصراع العربي - الإسرائيلي** *The Balfour Declaration: The Origins of Arab-Israeli Conflict*، بالتفاصيل الدقيقة الجهود التي بذلها الصهاينة لدى الوزراء ورؤيس الوزراء البريطانيين منذ عام 1904 حتى صدور تصريح بلفور. كما أوضح دور الولايات المتحدة الأميركية في الضغط على الحكومة البريطانية لإصدار التصريح.

## صدى تصريح بلفور

### 1. صدى التصريح في الأوساط اليهودية

بيئاً في ما سبق احتفال القيادات الصهيونية اليهودية في بريطانيا بالتصريح بعد مرور شهر واحد على صدوره. أما اليهود من غير الصهاينة، فكان يمثلهم مجلس المندوبين اليهود Board of Deputies of British Jews، برئاسة لوسيان ولف Lucien Wolf (1857-1930) الذي كان يسعى لإقناع السياسيين البريطانيين بالدفاع عن المصالح اليهودية ومساندة اليهود خارج بريطانيا. ويؤمن هذا المجلس بدمج اليهود في

8 منصور، ص 199؛ وانظر أيضاً:

Ibid., pp. 471-473, 484, 521, 548-549; Jonathan Schner, *The Balfour Declaration: The Origins of Arab-Israeli Conflict* (London: Bloomsbury Publishing, 2011), pp. 335, 341.

9 Schner, p. xxxvii.

المجتمعات التي يعيشون فيها. وناصب هذا المجلس الحركة الصهيونية العداة<sup>(10)</sup>. كما كان الوزير اليهودي إدوين مونتاغو في حكومة ديفيد لويد جورج يقاوم بشدة تصريح بلفور، ويعتقد أنه يسيء إلى اليهود في جميع أنحاء العالم، ويشكك في ولائهم للدول التي يعيشون فيها. وكان لوسيان ولف قد تولى تحرير صحيفة **العالم اليهودي** *Jewish World* في لندن. وعارض الحركة الصهيونية في بريطانيا كلود مونتيفيوري Claude Montefiori رئيس الرابطة الأنغلو-يهودية Anglo-Jewish Association، الذي رأى في الحركة الصهيونية خضوعاً للاسامية. ونادى بحتمية زوال القومية اليهودية أمام الطابع العالمي للديانة اليهودية، مؤكداً أن اليهود قد تحرروا من الغيتو Ghetto (الحي الخاص باليهود في المدن الأوروبية) وانتشروا في العالم بوصفهم أحراراً، فلا يمكن، ولا يعقل، أن يعود اليهود إلى حدود جغرافية تقيدهم. فاليهودي ابن ديانة معينة ولا ينتمي إلى شعب يهودي.

وكان من معارضي الحركة الصهيونية في بريطانيا هاري ساكر Harry Sacher (1881-1971) الصحافي اليهودي الذي ساهم في تأسيس "لجنة فلسطين البريطانية"، وكان يعارض إقامة دولة يهودية في فلسطين، ولا يمانع في إنشاء مشاريع ثقافية واجتماعية يهودية فيها مثل إنشاء جامعة عبرية. ومن بين اليهود المقيمين في بريطانيا البالغ عددهم 300 ألف نسمة، انتمى ثمانية آلاف منهم إلى الحركة الصهيونية عام 1913. ومن بين يهود لندن البالغ عددهم في العام نفسه 150 ألف نسمة، كان عدد المنتمين منهم إلى الحركة الصهيونية أقل من أربعة آلاف عضو<sup>(11)</sup>.

وعلى الصعيد الصهيوني، اقترح الصحافي اليهودي الروسي المهاجر حديثاً إلى بريطانيا زئيف فلاديمير جابوتسكي Ze've Vladimir Jabotinsky إنشاء جيش يهودي ليقاوم إلى جانب قوات الحلفاء في فلسطين. وقد التقى حاييم وايزمان بديفيد لويد جورج في نيسان/أبريل 1917، وبحث معه الموضوع، فنال تأييده. ورأى بعض اليهود البريطانيين أن إنشاء هذا الجيش، أو اللواء، قد يدفع الأتراك في سورية إلى الانتقام من اليهود فيها؛ ولذا لا حاجة إلى إنشائه ما دام المواطنون اليهود البريطانيون يعملون في القوات المسلحة البريطانية<sup>(12)</sup>.

وفي روسيا، حيث كان يعيش فيها ما يربو على نصف عدد اليهود في العالم، قامت ثورة آذار/مارس 1917، التي أعطت اليهود فرصة التعبير عن رأيهم. وكانت الطبقات الفقيرة من هؤلاء اليهود الروس ترى في الهجرة إلى فلسطين خلاصاً من الفقر والاضطهاد الاجتماعي والإقامة في الأراضي المقدسة. ورأى كثير من يهود روسيا الذين تبنوا الأفكار الاشتراكية في الحركة الصهيونية خطراً كبيراً لتماهيها مع الاستعمار والرأسمالية. وكان يمثل هؤلاء "الاتحاد من أجل نيل الحقوق الكاملة لليهود في روسيا" Union for the Attainment of Full Rights for the Jews in Russia. نادى هذا الاتحاد بتأليف كتلة برلمانية تعمل على الاعتراف الرسمي باليهودية بوصفها قومية لا أرض لها في الإمبراطورية الروسية. وقد تشكل هذا الاتحاد في أعقاب ثورة روسيا عام 1905. وفي روسيا كان انجذاب الشباب اليهود إلى الأخوة الاشتراكية العالمية قوياً. ومع مطلع القرن العشرين، كان اليهود الروس الذين يقومون بدور فاعل في الحركات الراديكالية الرئيسة؛ مثل الثوريين الاشتراكيين Social Revolutionaries، والفوضويين Anarchists، والاشتراكية الماركسية (الديمقراطيون الاشتراكيون).

وبدأ العمال اليهود في المدن الروسية الكبرى، مثل فيلنا Vilna وبيالستوك Bialystok، بإنشاء اتحادات عمالية وجمعيات للمساعدة المتبادلة وتنظيم التظاهرات لتحسين الأجور وأحوال العمال. وأسس مجموعة من المثقفين والعمال اليهود في فيلنا "الاتحاد العام للعمال اليهود في ليتوانيا وبولندا وروسيا، في تشرين الأول/أكتوبر 1897، المعروف باسم البوند Bund". وغدا الاتحاد العام للعمال اليهود أقوى منافس للحركة الصهيونية في روسيا وبولندا وليتوانيا. وحماى الاتحاد اليهود أثناء تعرضهم للمذابح في روسيا. وسعى لنيل

10 Ibid., p. xxviii.

11 منصور، ص 113-115؛ وانظر أيضاً:

Ibid., p. xxi.

12 Schneer, pp. 314-315.

الاعتراف به ممثلًا ووحيدًا للعمال اليهود في روسيا. غير أن الديمقراطيين الاشتراكيين (الحزب الشيوعي الروسي) بقيادة لينين رفضوا ذلك. وفي عام 1905 طالب منظر البوند فلاديمير ميديم Vladimir Medem بضمانات قانونية للتطور الحر للثقافة اليهودية في روسيا. ومنذ عام 1907 أصبحت لغة اليديش Yiddish (الألمانية - العبرية) لغة البوند<sup>(13)</sup>.

ومع قيام ثورة آذار/ مارس 1917، انتهى حكم القيصرية من أسرة رومانوف في روسيا، وألغت الحكومة المؤقتة التمييز القانوني ضد اليهود في 16 آذار/ مارس 1917. وتلا ذلك ثورة البولشفيك بقيادة لينين في تشرين الأول/ أكتوبر 1917. وكان لليهود دور واضح فيها، وتولى قيادة الجيش الأحمر اليهودي ليون تروتسكي Leon Trotsky، وكان من قيادة الحزب الحاكم اليهوديان كامنيف Kamenev وزينوفيف Zinoviev<sup>(14)</sup>.

أما في الولايات المتحدة الأمريكية، فلم يتجاوز عدد اليهود المهاجرين إليها عند نيلها الاستقلال، عام 1776، ألفين وخمسمئة يهودي، ولكن أعدادهم ارتفعت خلال الفترة 1841-1880 حتى بلغت ربع مليون نسمة. وكان معظمهم قد قدم من ألمانيا وبوهيميا وهنغاريا وروسيا ورومانيا. وفي الفترة 1881-1914 بلغ عدد اليهود في الولايات المتحدة مليوني نسمة، جاء معظمهم من أوروبا الشرقية. وأنشأ اليهود المهاجرون الألمان في عام 1906 اللجنة اليهودية الأمريكية American Jewish Committee<sup>(15)</sup>.

ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى، سعى لويس برانديس، القاضي في المحكمة العليا الأمريكية، وصديق الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون Woodrow Wilson، لبسط هيمنة الصهيونية على حياة الجالية اليهودية الأمريكية، بصفته المسؤول الأول عنها. وكان له دور بارز في إقناع الرئيس ويلسون بدخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء في نيسان/ أبريل 1917. كان عدد اليهود الصهاينة في الولايات المتحدة عام 1914 لا يتجاوز 12 ألف عضو. وتولى برانديس رئاسة اللجنة اليهودية الأمريكية، وعقد اتحاد الصهاينة الأمريكيين American Zionist Federation مؤتمرًا استثنائيًا في نيويورك، في 3 آب/ أغسطس 1914، أسفر عن تشكيل هيئة خاصة باسم اللجنة التنفيذية المؤقتة للشؤون الصهيونية العامة The Provisional Executive Committee for General Zionist Affairs، برئاسة برانديس. وقام كل من الدكتور جوداه ماغنيس Judah Magnes وشماريا ليفين Shmarya Levin، وهما يهوديان أمريكيان، بدور مهم في الولايات المتحدة لصالح المشروع الصهيوني. وساهم هؤلاء جميعًا في دعم القيادة الصهيونية بلندن في سعيها لإصدار تصريح بلفور. ولقي التصريح ترحيبًا واسعًا في الأوساط اليهودية الأمريكية<sup>(16)</sup>.

وفي ألمانيا كلف أوتو فاربورغ وأرثر هانتكه Arthur Hantke بإدارة المقر العام للمنظمة الصهيونية العالمية في برلين، بعد أن خرج تشيلنوف وسوكولوف إلى بريطانيا والولايات المتحدة مع بداية الحرب العالمية الأولى. وتعاونوا مع فيكتور ياكسون الذي ترأس مكتب إسطنبول، ثم تولى إدارة مكتب كوبنهاغن في نهاية عام 1916. والواقع أن علاقات السفير الألماني في العاصمة العثمانية أدولف هيرمان فون مارشال ببيرشتاين Adolf Hermann Von Marschall Bieberstein الذي تولى هذا المنصب في الفترة 1897-1911، بالحركة الصهيونية قد اتسمت بالعداء؛ لذا استقبل الصهاينة نقله من موقعه بارتياح شديد. ولما جاء خلفه فانغينهايم Wangenheim عام 1914، سارع المندوب الصهيوني في إسطنبول ريتشارد ليشتهايم Richard Lichtheim إلى لقائه، في 15 حزيران/ يونيو 1914، وسعى لإقامة صلات وثيقة به. وبعد أسبوعين من هذا اللقاء، طلب منه ليشتهايم التوسط لدى السلطات العثمانية للسماح لمتين من المهاجرين الروس بدخول فلسطين، فاستجاب السفير لطلبه، ونجح في وساطته<sup>(17)</sup>.

13 Robert M. Seltzer, *Jewish People, Jewish Thought: The Jewish Experience in History* (New York and London: Macmillan Publishing Co./ Collier Macmillan Publishers, 1980), pp. 639-640.

14 Ibid., pp. 649, 651.

15 Ibid., pp. 642-647.

16 Stein, pp. 188-190, 195-197.

ولما دخلت الدولة العثمانية الحرب إلى جانب دولتي الوسط: ألمانيا والنمسا - هنغاريا، في 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 1914، أصدر أحمد جمال باشا، الوالي العثماني على بلاد الشام، في 7 كانون الأول/ ديسمبر 1914، أمراً نص على وجوب مغادرة اليهود الذين يحملون جنسية أجنبية على البواخر المغادرة للموانئ الفلسطينية، وأغلق بنك فلسطين الإنكليزي The Anglo-Palestine Bank.

ولما بلغت أنباء هذه التدابير المندوب الصهيوني في إسطنبول، اتصل بالسفير الألماني الذي استجاب له، فقابل الصدر الأعظم أنور باشا ووزير الداخلية طلعت بك، وتم الاتفاق على إيقاف تهجير اليهود الروس من فلسطين. وصدرت الأوامر بذلك إلى جمال باشا، فانصاع لها، وعزل سكرتيره بهاء الدين بك من منصبه، بناءً على طلب الصهاينة، وأوقف إجراءات التهجير، وأفرج عن الزعماء الصهاينة المعتقلين، وأعاد فتح بنك فلسطين الإنكليزي. وأصدر بياناً وُزِعَ على أهل فلسطين، أعلن فيه عن ثقته بالمواطنين اليهود، وحذّر من الشائعات القائلة بعدم ولائهم. واستقبل، على أثر ذلك، في تل أبيب، في 2 آذار/ مارس 1915، بمناسبة احتفال رسمي أقيم في مدرسة هرتسليا الثانوية، وألقى جمال باشا خطاباً في هذه المناسبة قال فيه: "لي الثقة بكم، وأنا متأكد أننا ستمتكن من التعاون من أجل بناء وطننا المشترك. ضعوا ثققتكم بنا، وسوف تقدم البلاد التي ترتبطون بها الحماية لكم. نحن نعتبركم عنصرًا طيبًا ومخلصًا".

وتزلفاً منه إلى اليهود، سمح جمال باشا للعمال اليهود في الجيش العثماني بالراحة يوم السبت. كما فتح أبواب مستشفيات الجيش لمعالجة الفقراء من اليهود، وأباح لهم شراء المواد الغذائية من مخازن الجيش بأسعار منخفضة. وبلغ تزلفه إليهم أوجه بتعيين ألبرت عنتيبي Albert Antibi اليهودي الشرقي، الذي كان يتقن اللغات التركية والفرنسية والعربية، عضواً في اللجنة الاستشارية السياسية والاقتصادية لولاية سورية، ومستشاراً خاصاً له. كما عين موشيه ويلبوشفيتز Moshe Wilboschwitz رئيساً للمهندسين المدنيين ومديراً لدائرة التنمية في ولاية سورية<sup>(18)</sup>.

وفي ألمانيا نفسها، أحدثت وزارة الخارجية دائرة خاصة باليهود سمّتها دائرة الشؤون اليهودية Abteilung fuer Judische Frage، وعمل فيها ناحوم غولدمان Nahum Goldmann، الزعيم الصهيوني المعروف، في قسم الدعاية التابع لهذه الدائرة. ووضعت السفارة الألمانية في إسطنبول حقيبتها الدبلوماسية تحت تصرف الصهاينة لتأمين سرية الاتصال بين مندوبيهم في إسطنبول وبرلين وبافا والقدس.

كان هدف الحكومة الألمانية من هذا التعاون أن يمارس يهود الولايات المتحدة الأميركية نفوذهم على الحكومة الأميركية ليضمنوا حيادها في الصراع الدولي القائم. واشتد اهتمام الحكومة الألمانية بالحركة الصهيونية في نهاية عام 1915، بعد أن خابت آمال الألمان في إحراز نصر حاسم وسريع على الجبهة الأوروبية الغربية. وأصدرت السفارة الألمانية في إسطنبول تعليماتها، في 22 تشرين الثاني/ نوفمبر 1915، إلى القناصل الألمان في فلسطين وسورية لحماية المستعمرات اليهودية والعطف على "المطالبة الحقة لليهود للمدى الذي لا يتعارض والمصالح الوطنية للأتراك". وعلى الرغم من هذه الإجراءات، كتب المندوب الصهيوني في إسطنبول إلى الزعيم الصهيوني الألماني شتراوس Strauss، في 6 تموز/ يوليو 1915، قائلاً: "لن تضحي ألمانيا بتحالفها مع تركيا من أجلنا، فالصهيونية لا تحتل مقام الأولوية لديها [...] وبوجه عام يمكن أن نعرب عن ارتياحنا لما فعلته السفارة الألمانية من أجلنا"<sup>(19)</sup>.

ولما تألفت حكومة عثمانية جديدة برئاسة طلعت باشا في عام 1917، سارعت اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية إلى الاتصال بوزارة الخارجية الألمانية، طالبةً منها بذل المساعي لدى الحكومة العثمانية الجديدة للحصول على بيان مؤيد للألماني الصهيونية. ولما

18 المرجع نفسه، ص 161-163.

19 المرجع نفسه، ص 163-165.

حوّل الطلب إلى السفير الألماني في إسطنبول رايشارد فون كيلمان Reichard Von Kuelmann، أعرب السفير عن تحفظه عليه. وبعث برسالة إلى المستشار الألماني بيتمان هولفينغ Bethmann Hollweg، في 26 آذار/ مارس 1917، ذكر فيها أن صلة الصهيونية بيهود العالم ضعيفة، وأن دورها في التأثير في موقف الولايات المتحدة الأمريكية لم يعد له قيمة، بعد أن قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع ألمانيا، ووقفت في صف "الأعداء" في نيسان/ أبريل 1917، وأعلنت الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا. وبهذه المناسبة، اقترح الملحق البحري الألماني في العاصمة العثمانية على الحكومة العثمانية طرد المندوبين الصهاينة في الدولة العثمانية لارتباطهم بالمخابرات الأمريكية<sup>(20)</sup>.

وبوجه عام، يمكن القول إن تصريح بلفور لم يحظَ بإجماع أكثرية اليهود في العالم، وإن الحركة الصهيونية لم تنتشر حتى بداية الحرب العالمية الأولى على نطاق واسع في الأوساط اليهودية الكبرى؛ أي في روسيا، والولايات المتحدة الأمريكية، رغم نجاحها على الصعيد السياسي الدولي.

## 2. صدى التصريح في الأوساط الغربية

### أ. الصدى في بريطانيا

دار نقاش في مجلس العموم البريطاني حول مضمون التصريح، وإن كان يعني موافقة الحكومة البريطانية على قيام دولة يهودية مستقلة أو حكم ذاتي Autonomy يهودي في فلسطين أو الكومنولث البريطاني. وحتى في مجلس الحرب الذي قرر تصريح بلفور، لم يفكر رئيس المجلس ديفيد لويد جورج في إمكان إقامة دولة يهودية في فلسطين. ولما ناقش المجلس صيغة التصريح، سأل عضو المجلس ناثانيال كيرزون Nathaniel Curzon، بصفته اللورد رئيس المجلس Lord President of the Council، زملاءه: "كيف يمكن اقتراح طرد الأغلبية الموجودة من السكان المسلمين، واستقدام يهود بدلاً منهم؟ وما هو مصير شعب هذا البلد، وقد سكن أبأؤهم فيه ألفاً وخمسمئة سنة تقريباً؟ وهم يمتلكون الأرض ويعتقون العقيدة المحمدية. إنهم لن يقبلوا أن تصادر ممتلكاتهم من أجل المهاجرين اليهود، وأن يعملوا مجرد خطابين وسقاة لهؤلاء". لقد عارض كيرزون وإدوين مونتاغو الوزير اليهودي العضو في مجلس الحرب إصدار تصريح بلفور، بينما أيده كل من رئيس الوزراء ديفيد لويد جورج، وأرثر بلفور وزير الخارجية، والسير ألفرد ميلنر وزير المالية<sup>(21)</sup>.

ودار نقاش في بريطانيا حول حدود فلسطين؛ فهل تشمل جنوب لبنان وهضبة الجولان وجزءاً من حوران وكل شرق الأردن، كما أراد الصهاينة؟ لقد حسم الموضوع تصريح رئيس الوزراء بونار لو Bonar Law في مجلس اللوردات، في كانون الأول/ ديسمبر 1920، بقوله: فلسطين المعروفة الواردة في العهد القديم من دان إلى بئر السبع، وبذلك حددها شمالاً وجنوباً وغرباً بالبحر المتوسط وشرقاً بنهر الأردن.

وكان الرأي السائد في مجلس العموم البريطاني، في أوائل عام 1920، أن نهر الأردن هو الحد الأمثل بين فلسطين والبلاد العربية؛ "لأنه سيكون من المستحيل علينا الإنكليز أن نحتمي أي مستعمرة صهيونية إلا إذا توافرت لدينا قوات كبيرة من الفرسان والطيران؛ ولهذا فإننا نأمل أن يكون نهر الأردن الحد الفاصل بين الصهاينة والعرب"<sup>(22)</sup>.

20 المرجع نفسه، ص 166-169.

21 Schneer, pp. 341-342.

22 Hansard, *Parliamentary Debates*, H. C. (29/4/1920), vol. 40, col. 1515.



ولما دخلت القوات الفرنسية إلى دمشق، في تموز/ يوليو 1920، وقضت على المملكة العربية الفتية، صرح بونار لو أمام مجلس العموم في 28 تموز/ يوليو 1920 بقوله: "إن إدارة حكومة فلسطين لن تضم الأراضي الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن"<sup>(23)</sup>.

وكان موقف حزب المحافظين في بريطانيا معارضاً لفكرة الوطن القومي اليهودي؛ لأنها ستثير ملايين المسلمين الواقعين تحت الحكم البريطاني. كما أن الحزب لا يعترف باليهود شعباً أو أمةً لافتقارهم إلى مقومات الأمة والدولة. وكان حزب الأحرار البريطاني يعارض تصريح بلفور أيضاً لرفضه أي احتلال بريطاني جديد في أي بقعة من العالم. وكانت الكنيسة الأنجليكانية The Anglican Church في بريطانيا تعارض تصريح بلفور بشدة لخشيته أن يؤثر ذلك في وضع الأماكن المقدسة في فلسطين وفي حج المسيحيين إلى هذه الأماكن<sup>(24)</sup>.

وفي تقاريرهم السرية، ذكر ضباط المخابرات والقادة العسكريون البريطانيون في مصر وبلاد الشام آراءهم في تصريح بلفور. فهذا توماس إدوارد لورنس يرى أن العرب لن يوافقوا على الاستقلال اليهودي في فلسطين<sup>(25)</sup>. وأبرق غلبرت كلايتون Gilbert Clayton، مدير الاستخبارات العسكرية البريطانية في القاهرة، في 2 أيار/ مايو 1919، إلى لندن بمذكرة ينصح فيها رئيس الإدارة العسكرية البريطانية في فلسطين الجنرال موني G.I. Money الحكومة البريطانية بالتخلي نهائياً عن تصريح بلفور<sup>(26)</sup>. وكان كلايتون قد اقترح على مارك سايكس المستشار السياسي للجنرال إدموند أللبي Sir Edmund Allenby، قائد قوات الحملة المصرية - البريطانية التي احتلت فلسطين، أن تمتنع الحكومة البريطانية عن إصدار أي تصريح علني لصالح الصهيونية، لا لأنه لا مكسب منه، بل "لأنه سيثير معارضة العرب لنا"<sup>(27)</sup>.

وعلمت غيرترود بيل Gertrude Bell، عضو المكتب العربي (الاستخبارات البريطانية) في القاهرة على وعود بريطانيا السرية أثناء الحرب العالمية الأولى في رسالة إلى أمها بقولها: تدفعني الخبرة التي اكتسبتها خلال الحرب إلى استنكار الوعود غير الحذرة والاتفاقيات الخيالية بشدة. نحن مثل الناس الذين يمشون في أرض مجهولة يغطيها الضباب، ويجب علينا أن نعرف طريقنا ونتنبه لكل خطوة نخطوها. وبشأن تصريح بلفور كتبت إلى أمها: "إنني أعتقد أنه لا يمكن تحقيقه، فالبلاد غير ملائمة لأهداف اليهود المعروفة، هي بلاد فقيرة، وغير قابلة للتنمية، وثلاثاً سكانها من العرب المسلمين الذين ينظرون إلى اليهود باحتقار. إنه مشروع مصطنع كلياً، لا علاقة له البتة بالحقائق، وأتمنى له الفشل الذي يستحقه، وسيفشل كما أتخيل"<sup>(28)</sup>.

بعد أشهر قليلة من صدور تصريح بلفور، كتب لورنس رسالة إلى مارك سايكس جاء فيها: "أعترف تماماً أننا قد نبيع أصدقاءنا الصغار [العرب] من أجل مصلحة أصدقائنا الكبار (الحركة الصهيونية العالمية وفرنسا)، أو نبيع لفرنسا أمننا المستقبلي في الشرق الأدنى، مقابل انتصارنا الحالي في الفلاندرز [بلجيكا]. إذا أخبرتني مرة أخرى ماذا علينا أن نعطي اليهود، وماذا علينا أن نعطي الفرنسيين، فسأعمل كل شيء ممكن لتسهيل ذلك. إنني موالٍ جداً لبريطانيا وموالٍ أيضاً للعرب"<sup>(29)</sup>. يشير لورنس في رسالته السابقة الذكر إلى رفضه لاتفاقية سايكس-بيكو ولتصريح بلفور. وجاء في كتاب جيمس بار James Barr

23 Ibid., (28/7/1920), vol. 132, col. 1419.

24 منصور، ص 231-232.

25 Seltzer, p. 638.

26 Ibid., p. 645.

27 Ibid., pp. 522-523.

28 Schneer, pp. 83-84.

29 Ibid., pp. 320-321.

**إحراق الصحراء: توماس إدوارد لورنس وحرب بريطانيا السرية في البلاد العربية، 1916-1918** *Setting the Desert on Fire: 1918-1916* T. E Lawrence and Britain's Secret War in Arabia, 1916-1918 الصادر في لندن عام 2006، قول لورنس: "لو قبض للحلفاء أن ينتصروا، فإن وعود بريطانيا للعرب لن تكون سوى حبر على ورق. ولو كنت رجلاً شريفاً وناصباً أميناً لصارحتهم بذلك، وسرّحت جيوشهم، وجبّتهم التضحية بأرواحهم في سبيل أناس لا يحفظون لهم أمانة ولا ذمة. أما الشرف، فقد فقدته يوم أكدت للعرب أن بريطانيا ستحافظ على وعودها لهم. وقد جازفت بخديعة العرب، لاعتقادي أن مساعدتهم ضرورية لانتصارنا القليل الثمن في الشرق، ولاعتقادي أن كسبنا للعرب مع الحث بعودنا أفضل من عدم الانتصار. وإني أكثر ما أكون فخراً أن الدم الإنكليزي لم يسفك في المعارك التي خضتها، لأن جميع الأقطار الخاضعة لنا لم تكن تساوي في نظري موت إنكليزي واحد. لقد جازفت بخديعة العرب لأنني كنت أرى أن كسبنا للحرب مع الحث بعودنا أفضل من عدم الانتصار"<sup>(30)</sup>.

لقد عبّر لورنس بهذه العبارات عن خيانة بريطانيا للعرب ولقيادتهم الهاشمية التي تحالفت معها في الحرب العالمية الأولى. وعبّر بمرارة عن رفضه القاطع لاتفاقية سايكس-بيكو وتصريح بلفور؛ لذا سعى بكل ما لديه من قوة ونفوذ للوصول إلى دمشق بقوات الأمير فيصل بن الحسين قبل وصول الحلفاء إليها وتحرير سورية حتى يقطع على الفرنسيين والصهاينة تحقيق مخططاتهم.

وعلى الصعيد الإسلامي، اجتمعت في لندن الجمعية الإسلامية The Islamic Society في 5 تشرين الثاني/نوفمبر 1917، واتخذت القرار التالي: "نحن أعضاء الجمعية الإسلامية ننظر بقلق شديد إلى الحركة المؤذية التي بدأها بعض الناس الذين يسمون أنفسهم صهاينة. ونأمل أن تصدر الحكومة البريطانية مرة ثانية تصريحاً عن سياستها في أقرب وقت لإزالة أي سوء فهم ينشأ في أذان المسلمين".

وبعد ذلك بخمسة أيام، كرر أمير علي، المحامي المسلم مؤسس جمعية الهلال الأحمر، هذه المخاوف. وقال في رسالة إلى اللورد هاردينغ Lord Harding، الأمين العام الدائم لوزارة الخارجية البريطانية: "فلسطين تُعد في نظر المسلمين بلاداً مقدسة، والقدس تأتي في قدسيته بعد مكة والمدينة، وروح نبيهم انطلقت من القدس في صعودها إلى السماء. والقدس وما حولها تعج بالأماكن الإسلامية المقدسة والمساجد والأضرحة. وسوف تكتشف، يا سعادة اللورد، كيف كانت الفكرة مؤذية لهم بوجود وضع أماكنهم المقدسة في فلسطين تحت سيطرة اليهود"<sup>(31)</sup>.

## ب. الصدى في فرنسا

كان همُّ الحكومة الفرنسية منصباً على ضرورة الالتزام باتفاقية سايكس-بيكو، وأن يكون لهم دور في تقرير مصير فلسطين. ولكن مساعي مارك سايكس لدى السلطات الفرنسية في باريس لإقناعها بجدوى تصريح بلفور، ومساعي المكتب الصهيوني في باريس برئاسة ناحوم سوكولوف، أثمرت بقبول التصريح. واقتنع جورج كليمنصو Georges Clemenceau بذلك، ودفع وزير خارجيته ستيفان بيشون Stéphane Pichon إلى إصدار بيان يتضمن تعاطف الحكومة الفرنسية مع تصريح بلفور. وجاء في رسالة بيشون الموجهة إلى سوكولوف مندوب المنظمة الصهيونية العالمية في 14 شباط/فبراير 1918: "إن التفاهم تام بين الحكومتين الفرنسية والإنكليزية في ما يتعلق بمسألة استيطان اليهود في فلسطين". أما الرأي العام الفرنسي، فكان معادياً للتصريح، ولفكرة قيام دولة يهودية في فلسطين<sup>(32)</sup>. وسوف نرى تغير الموقف الفرنسي أثناء مؤتمر الصلح في باريس خلال عامي 1919 و1920.

30 منصور، ص 90؛ وانظر أيضاً:

Ibid., p. 323.

31 Schneer, pp. 372-373.

32 علي محافظة، موقف فرنسا وألمانيا وإيطاليا من الوحدة العربية، 1919-1945 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1985)، ص 46-47.

## ج. الصدى في إيطاليا

ترددت إيطاليا في دخول الحرب العالمية الأولى إلى جانب الحلفاء، رغبة منها في الحصول على تنازلات منهم على صعيد المستعمرات. وفي 4 آذار/ مارس 1915 قَدّم إمبريالي Imperiali، سفير إيطاليا في لندن، مذكرة إلى وزير الخارجية البريطاني إدوارد غراي تضمنت المطالبة بالحفاظ على التوازن في البحر المتوسط، وتقديم ضمانات بريطانية - إيطالية لليمن. وفي 26 نيسان/ أبريل 1915 وقّعت اتفاقية لندن التي أدت إلى دخول إيطاليا الحرب إلى جانب الحلفاء. وبقيت هذه الاتفاقية سرية، وفي ضوءها أعلنت إيطاليا الحرب على النمسا في 23 أيار/ مايو 1915، ولكنها لم تعلن الحرب على ألمانيا إلا في 8 آب/ أغسطس 1916.

ولم تعلم إيطاليا باتفاقية سايكس-بيكو إلا في 7 تموز/ يوليو 1916 عن طريق قنصلها في القاهرة سلفاغو راجي Salvaogo Raggi. وبذلت جهودًا دبلوماسية مضيئة حتى تمكنت من الاطلاع عليها في 5 تشرين الأول/ أكتوبر 1916 عن طريق وزير الخارجية البريطاني. وفي السادس عشر من الشهر نفسه أبرق وزير خارجية إيطاليا سيدي سونينو S. Sonnino إلى سفيره في لندن، مبدئيًا تحفظاته عليها. وفي الرابع والعشرين منه، بعث بمذكرات إلى باريس ولندن وبطرسبرغ تتضمن الرد الرسمي الإيطالي على اتفاقية سايكس-بيكو، وهو رد يحتوي على المطالبة بإشراك إيطاليا في المفاوضات مع العرب حول مستقبل منطقتي "أ" و"ب" الواردتين في الاتفاقية، وأكدت المذكرات المصالح الإيطالية في البحر الأحمر.

واستمرت إيطاليا، طوال الحرب، تؤكد مطالبها هذه، ففي خطاب ألقاه رئيس وزرائها باولو بوزلي P. Boselli في مجلس النواب الإيطالي، في 5 كانون الأول/ ديسمبر 1916، قال: "إن إيطاليا دولة متوسطة أساسية، ونحن لا نسعى للهيمنة، وإنما لتوازن القوى الذي يعتبر شرطًا ضروريًا للسلام والرخاء [...] وتنظيم السلام يؤمن هذا التوازن في الجزء الشرقي من البحر المتوسط الذي يؤلف إحدى قواعد السياسة الإيطالية". وتحت إلهام إيطاليا، اقترح وزير خارجية بريطانيا آرثر بلفور عقد اجتماع رباعي في روما يحضره ممثلون عن بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا لإيجاد حل سريع لمسألة آسيا الصغرى (تركيا حاليًا). وعقد الاجتماع في كانون الثاني/ يناير 1917، من دون الوصول إلى حل حاسم. وتلاه اجتماع آخر عُقد في لندن في التاسع والعشرين من الشهر نفسه، واجهت إيطاليا فيه معارضة أنغلو-فرنسية لأطماعها في آسيا الصغرى. ولما بلغت إيطاليا أبناء عن حملة أنغلو-فرنسية يُنتظر إرسالها إلى فلسطين، سعت لدى حلفائها ومارست ضغوطًا شديدة لضمان مشاركتها فيها. وبمساعٍ من بريطانيا وفرنسا، عقد اجتماع في سان جان دوموريان Saint Jean de Maurienne في 19 نيسان/ أبريل 1917 في عربة القطار القادم من باريس؛ لبحث إمكان إبرام صلح منفرد مع الإمبراطورية النمساوية - الهنغارية. وتقرر في هذا الاجتماع تأكيد المطالب الإيطالية في اتفاقية لندن في 26 نيسان/ أبريل 1915<sup>(33)</sup>.

نادت إيطاليا بتدويل فلسطين، حتى يكون لها نصيب فيها. كما طالبت بحيادها من دون جعلها وطنًا قوميًا لليهود. وتعرضت إيطاليا لضغوط من بريطانيا ومن المنظمة الصهيونية العالمية، واستجابت لهذه الضغوط، وأعلن وزير خارجيتها سونينو عن موافقة حكومته على تصريح بلفور واستعدادها لتوفير الدعم اللازم لإنشاء مركز يهودي فيها.

وعلى الرغم من موقف الفاتيكان في روما من التعاطف مع الأماني اليهودية، فقد رأى في تصريح بلفور خطرًا على مصالح البابوية والكنيسة الكاثوليكية في فلسطين؛ لذا عارض الفاتيكان تصريح بلفور، وطالب بأن تتولى فرنسا الكاثوليكية إدارة فلسطين وليس بريطانيا البروتستانتية<sup>(34)</sup>.

33 المرجع نفسه، ص 43-45.

34 منصور، ص 235.

## د. الصدي في الولايات المتحدة الأمريكية

كانت فرنسا وإيطاليا تنافسان بريطانيا في اقتسام ممتلكات الدولة العثمانية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. أما الولايات المتحدة الأمريكية فلم يكن لها دور في هذا التنافس، ولم يكن تقسيم الإمبراطورية العثمانية من أحد أهدافها في الحرب. وقد امتنعت عن إعلان الحرب على الدولة العثمانية. ولكن هذه الحقيقة كانت في حد ذاتها عقبة أمام تأييد الولايات المتحدة لتصريح بلفور. ويبدو أن وزير الخارجية الأمريكي روبرت لانسينغ لم يحبذ التصريح، ولكنه مع اقتناع رئيس الجمهورية وودرو ويلسون، بقي صامتًا، وكان حجتة الرئيسة أن فلسطين هي أرض تركية، والولايات المتحدة وتركيا ليستا في حالة حرب. وقد بيّن موقفه هذا في رسالة في 13 كانون الأول/ديسمبر 1917، نصح فيها الرئيس ويلسون بمقاومة ضغوط الصهاينة على الأميركيين لإصدار بيان يؤيد تصريح بلفور. وجاء فيها ما يلي: "أولاً [ذكر الرئيس] نحن لسنا في حالة حرب مع تركيا، ولذلك يجب تجنب أي ظهور بأحد أراضي من تركيا بالقوة. ثانيًا: اليهود ليسوا بأي حال جماعة لها الرغبة في إعادة لَم شمل جنسها كشعب مستقل [...] ثالثًا: سوف يرفض العديد من الطوائف والأفراد المسيحيين، بلا شك، تحويل البلاد المقدسة للسيطرة المطلقة لعرق مسؤول عن قتل المسيح. ولأغراض عملية لا نعتقد أننا نحتاج إلى الذهاب إلى أبعد مما جاء في السبب الأول، لأنه الأساس المناسب للامتناع عن إعلان أي سياسة تتصل بالمصير النهائي لفلسطين".

ومرفق بهذه الوثيقة في أرشيف وزارة الخارجية الأمريكية مذكرة من لانسينغ جاء فيها: "أعاد الرئيس لي هذه الرسالة في اجتماع مجلس الوزراء في 14 كانون الأول/ديسمبر 1917، قائلاً إنه مجبر على الاتفاق معي رغم أنفه، ولكنه قال إن لديه انطباعاً بأنه قد وافق على التصريح البريطاني بشأن إعادة فلسطين لليهود".

لقد أصيب الصهاينة الأميركيون بخيبة أمل إزاء صمت الرئيس ويلسون والتردد في إعلان موافقته على تصريح بلفور. ومضت عشرة أشهر حتى اقتنع ويلسون بإعطاء الصهاينة بعض التشجيع. وجاء ذلك في جوابه على رسالة الحاخام ستيفن وايز Rabbi Stephen Wise الذي حل محل برانديس رئيسًا للجنة المؤقتة للشؤون الصهيونية العامة، بعد ترقية برانديس لعضوية المحكمة العليا. وكان وايز قد أعلم الرئيس ويلسون بأن برنامج بازل الذي أقره المؤتمر الصهيوني الأول وتصريح بلفور لم يشير إلى طبيعة السيادة على الأرض التي ستكون وطنًا لليهود، وأن ذلك متروك لتقريره على مائدة السلام. رد ويلسون على رسالة وايز، في 31 آب/أغسطس 1918، متجنبًا أي بيان رسمي للسياسة الأمريكية، ومؤكّدًا للصهاينة نيته الحسنة شخصيًا. وجاء في الرد: "أرحب بهذه المناسبة للتعبير عن ارتياحي الذي شعرت به نحو تقدم الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة وفي البلاد الحليفة، ولتصريح السيد بلفور نيابة عن الحكومة البريطانية [...] وأعتقد أن جميع الأميركيين سيسعدون جدًا أن يعلموا أنه حتى في هذا الوقت من الضغط استطاعت أن تضع حجر الأساس للجامعة العبرية في القدس".

هذا وقد التقى الرئيس ويلسون بحاييم وايزمان في كانون الثاني/يناير 1919، قبيل افتتاح مؤتمر الصلح (السلام) في باريس، وأكد له أن في إمكان الصهاينة الاعتماد على دعمه الشخصي<sup>(35)</sup>.

## هـ. الصدي في ألمانيا

بينما كان قادة الحركة الصهيونية في لندن، بزعامة حاييم وايزمان، يتفاوضون مع الحكومة البريطانية (منذ حزيران/يونيو 1917) حول إصدار تصريح يعطف على الألماني الصهيونية في فلسطين، قدّمت لجنة العمل الصهيونية، المنبثقة من اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية، مذكرة إلى وزارة الخارجية الألمانية في 22 تموز/يوليو 1917 تحث الحكومة الألمانية على الإسراع بمساعدة الصهاينة قبل أن يكسبهم الحلفاء إلى صفوفهم، غير أن وزارة الخارجية الألمانية لم تُعِر هذا التحذير أدنى صاغية.

35 Stein, pp. 593-595.

وبعد أسبوعين من صدور تصريح بلفور، نشرت الصحيفة اليهودية الألمانية *Judische Rundschau* مقالين للزعيم الصهيوني ليشتهايم أشاد فيهما بالتصريح البريطاني، واعتبره حدثاً ذا أهمية تاريخية ودولية. وطالب دول الوسط أن تأخذ العبرة من السياسة البريطانية. وانسأقت بعض الصحف الوطنية الألمانية، بتأثير من الصهاينة الألمان، نحو كيل المديح للحركة الصهيونية وتأييد مطالبها، مثل: صحيفة الشعب البرلينية *Die Berliner Volkszeitung* وصحيفة الشرق الألمانية *Die Deutsche Levantzeitung* وصحيفة الساعي الفرنسي *Fraenkischer Kurier*. وقد أعربت هذه الصحف عن شفقتها على ألمانيا التي فشلت في الاستفادة من النفوذ الصهيوني وأتاحت لبريطانيا إحراز نصر معنوي سهل.

وجدت الحكومة الألمانية نفسها، بعد تصريح بلفور، أمام خيارين: إما الاستمرار في تجاهل الأطماع السياسية الصهيونية، وإما انتهاج سبيل مماثلة لما انتهجته بريطانيا وإصدار بيان علني لصالح الصهيونية. وضاعفت القيادة الصهيونية في ألمانيا جهودها من أجل حمل صانعي القرار السياسي في برلين على أن يحذوا حذو بريطانيا. وتمكنت هذه القيادة من دفع زعيم حزب الوسط الكاثوليكي إيرتسبرغر *Erzberger* إلى تقديم مشروع تصريح ألماني إلى وزير الخارجية الألماني الجديد فون كيلمان (السفير السابق في إسطنبول) في 30 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917، يتضمن عطف الحكومة الألمانية على الألماني الصهيونية في إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، والسعي لإقناع الحكومة العثمانية بإصدار تصريح مماثل. غير أن وزير الخارجية المعروف بموقفه المعادي للصهيونية، رفض هذا المشروع. واقترح في المقابل أن تصدر الحكومة الألمانية وعداً بإقامة استقلال ثقافي ذاتي في المناطق الروسية والبولندية الواقعة تحت الاحتلال الألماني. وقد أيدته في هذا الاقتراح الذي رفعه إلى القيصر، رئيس أركان القوات المسلحة الألمانية الجنرال لودندورف *Ludendorff*، غير أن الحكومة الألمانية رفضت هذا الاقتراح.

غادر أحمد جمال باشا والي سورية بيروت بعد أن ألقى خطاباً وداعياً، في مطلع كانون الأول/ ديسمبر 1917، شدد فيه على ضرورة عدم التخلي عن القدس؛ لأنها، على حد تعبيره، مفتاح سورية. ولكن القيادة العليا الألمانية لم تُعر آراء أنور باشا وجمال باشا اهتماماً، وأمرت القوات العثمانية بالانسحاب من المدينة المقدسة في 8 كانون الأول/ ديسمبر 1917، فدخلها الجيش البريطاني بقيادة الجنرال أللبي في اليوم التالي من دون قتال<sup>(36)</sup>.

لم يوقف سقوط القدس في أيدي البريطانيين مساعي الصهاينة للحصول على تصريح رسمي ألماني مماثل لتصريح بلفور. فقد طالب الزعيم الصهيوني الألماني هانتكه في اجتماع اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية، الذي عقد في 23-24 كانون الأول/ ديسمبر 1917، باتخاذ قرار يدعو ألمانيا إلى تصريح علني يؤيد الألماني الصهيونية. وتم له ذلك.

وانتهز الصهاينة كل فرصة سانحة؛ ففي أثناء زيارة الصدر الأعظم العثماني طلعت باشا إلى برلين، التقى في 2 كانون الثاني/ يناير 1918 بالزعيم اليهودي الألماني ألفرد نوسيج *Alfred Nossig* الذي بحث معه موضوع اليهود في الدولة العثمانية. وأوضح له طلعت باشا أن موقف الحكومة العثمانية من رعاياها اليهود ينطلق من النية الحسنة، وأنها تقدر ولاءهم الصادق، وأن له أصدقاء يهوداً عديدين، ولم يتردد في إلغاء القيود المفروضة عليهم حينما كان وزيراً للداخلية. وأكد طلعت باشا في حديثه هذا أن الباب العالي سوف يعيد تنظيم الأوضاع، حالما تعود القدس وجنوب فلسطين إلى السيادة العثمانية بطريقة تكفل رضا اليهود التام وتحقق أمانهم كافة. وقد نشرت فحوى هذا الحديث في الصحف الألمانية في اليوم التالي من اللقاء.

تلقت الحكومة الألمانية حديث طلعت باشا بالارتياح. وفي اليوم نفسه استدعى وكيل وزارة الخارجية الألمانية بالوكالة فون ديم بوشيه هادنهاوزن *Von Dem Busche Hadenhausen* الزعيمين الصهيونيين فاربورغ وهانتكه، عضوي اللجنة التنفيذية للمنظمة

36 محافظة، العلاقات الألمانية-الفلسطينية، ص 170-173.

الصهيونية، يرافقه من الزعماء اليهود الألمان: أوبنهايمر Oppenheimer، وفريدمان Friedmann، وزوبرهايم Soberheim (من أعضاء لجنة الشرق Komite Fuer den Osten)، إلى مكتبه وسلّمهم البيان الرسمي التالي: "نحن نؤيد رغبة الأقليات اليهودية في البلدان التي لهم فيها ثقافة متطورة، في أن تختط طريقها الخاص بها، وتميل إلى دعم أمانيتها، أما بالنسبة إلى أماني اليهود، وبخاصة أماني الصهاينة منهم في فلسطين، فإن الحكومة [الألمانية] ترحب بالتصريح الذي أدلى به مؤخرًا الصدر الأعظم طلعت باشا، والذي يعبر عن عزم الحكومة التركية، المتفق مع نظرتها الودية نحو اليهود بوجه عام، على تنمية استقرار يهودي مزدهر في فلسطين، عن طريق الهجرة غير المقيدة والاستيطان ضمن قدرة البلاد الاستيعابية، وقيام حكم ذاتي يتفق وقوانين البلاد والتطور الحر لحضارتها"<sup>(37)</sup>.

وتشكلت في ألمانيا اللجنة الفلسطينية Pro-Palaestina Komite برئاسة الأمير بيرنشتورف Bernstorff لتكون موازية للجنة فلسطين البريطانية British Palestine Committee، بهدف تشجيع الاستيطان اليهودي في فلسطين، وإحداث تغيير جذري في السياسة الألمانية نحو الحركة الصهيونية. وضمت اللجنة التنفيذية لهذه الهيئة عدة شخصيات ألمانية علمية وبرلمانية وحزبية وأدبية بارزة<sup>(38)</sup>.

### 3. صدق التصريح في الدولة العثمانية

بعد أن قررت القوات البريطانية في مصر اجتياح فلسطين، منيت بالهزيمة من خلال معركة غزة الأولى في 26 آذار/ مارس 1917. وفي اليوم التالي وصل عزت بك، متصرف القدس، إلى يافا، وجمع أعيان المدينة وأبلغهم قراره بترحيل المدنيين كافة عن يافا بسبب تقدّم قوات العدو. ولم يسمح إلا للفلاحين بالبقاء من أجل جني المحصول. وأبلغ المتصرف المجتمعين أن في إمكان المغادرين أن يقيموا في أي مكان من سورية باستثناء المدن الساحلية الثلاث: حيفا وعكا وبيروت، وأن من لا يستطيع الانتقال ستتولى السلطات العثمانية نقله إلى الداخل. أثار هذا القرار غضب اليهود الذين رفضوا مغادرة المدينة، واتصل زعماءهم بالقنصلين الألماني والنمساوي في القدس من أجل إبقاء اليهود في يافا. وجّه القنصلان المذكوران نداءً إلى متصرف القدس أكدا فيه ألا مبرر لهذا القرار بعد هزيمة القوات البريطانية في غزة. ولكن المتصرف لم يُعِر نداءهما اهتمامًا. أما القنصل الألماني في يافا، فقد تدخل ثلاث مرات لدى المتصرف، وهدد بالرحيل مع اليهود الألمان في حال رحيلهم.

غضب أحمد جمال باشا من تدخل القنصل الألماني في يافا كارل فون شابنغر Karl Von Schabinger. ووجه إنذارًا إلى القنصل الألماني العام في القدس الدكتور بروده Dr. Brode، في 1 نيسان/ أبريل 1917، وهدده بتقديم شابنغر إلى المجلس العرفي إن تّمدى في التدخل في الشؤون الداخلية العثمانية. وزار جمال باشا بعد يومين يافا والتقى بأعيانها، وبيّن لهم أن أمر إخلاء يافا يرجع إلى أسباب إنسانية. ومدد الأجل المقرر لإجلاء اليهود من يوم 31 آذار/ مارس إلى يوم 9 نيسان/ أبريل 1917. وسمح للمزارعين منهم بالبقاء. ومع ذلك تم إجلاء نحو تسعة آلاف يهودي من يافا وتل أبيب. غير أن نحو ستة آلاف منهم استقروا في مستعمرة بتاح تكفا، واتجه الباقون إلى نابلس.

استغلت الصحافة الصهيونية في العالم، وصحافة الحلفاء هذه الحادثة للتشهير بجمال باشا والسياسة العثمانية نحو يهود فلسطين. وصدرت مقالات في الصحفيتين البريطانيتين *The Times* و *The Daily Telegraph Manchester Guardian*، وفي الصحيفة الفرنسية *Le Temps* الفرنسية، تشهّر بهذه الحادثة.

واستدعى جمال باشا قناصل الدول الأجنبية في القدس بعد هذه الحادثة بعشرة أيام، وطلب منهم أن ينصحوا رعاياهم بمغادرة القدس خلال أربع وعشرين ساعة. ولكن القنصل الألماني العام، بالتضامن مع القناصل الآخرين تحدّى أوامر جمال باشا ورفض

37 نُشر هذا التصريح في الصحيفة الألمانية شمال ألمانيا العامة *Norddeutsche Allgemeine* (في 6 كانون الثاني/ يناير 1918)، كما نشر في الصحفيتين اليهوديتين الألمانيتين *Judische Presse* و *Judische Runschau* (في 11 كانون الثاني/ يناير 1918)، وقد علقتا عليه وعلى السياسة الألمانية الجديدة بإطراء وثناء.

38 محافظة. العلاقات الألمانية- الفلسطينية، ص 173-175.

الامتثال لها، بحجة أن الخطر العسكري ما زال بعيداً عن القدس. واحتج على هذه الأوامر رئيس هيئة أركان الفرقة الثانية في الجيش العثماني الرابع الكولونيل الألماني كريس فون كريسنشتاين Kress Von Kressenstein، وبعث برسالة حول الموضوع إلى السفارة الألمانية في إسطنبول. وتدخل وكيل وزارة الخارجية الألمانية في 26 نيسان/ أبريل 1917 لدى أنور باشا لإلغاء القرار. وتدخل الزعماء الصهيونية لدى وزارة الخارجية الألمانية، حتى إن المسألة أثيرت في الرايخستاغ (البرلمان الألماني)، واضطر وكيل وزارة الخارجية إلى إنكار إخلاء القدس في لقائه بلجنة الموازنة في الرايخستاغ في 8 أيار/ مايو 1917. وفي اليوم نفسه، أبقى سكرتير الدولة الألماني إلى السفير الألماني في إسطنبول يقول: "إن سياسة جمال باشا سوف تثير الرأي العام العالمي ضد تركيا وألمانيا، وبذلك نعطي العدو سلاحاً جديداً"<sup>(39)</sup>.

استجابت حكومة طلعت باشا لهذه الضغوط. واضطر جمال باشا إلى الالتقاء بزعماء اليهود في فلسطين والإعراب عن تعاطفه معهم. وكلف رئيس بلدية تل أبيب مئير ديزنغوف Meir Dizengoff بتشكيل لجنة لإغاثة اليهود. وتبرع بمبلغ ثلاثة آلاف ليرة تركية للجنة المذكورة. كما تبرع بألف ليرة للحاخام الأكبر نسيم دنون، وبألف أخرى للحاخام ماركوس هوروفيتز Marcus Horowitz لإنقاذ يهود القدس.

وشددت الرقابة على اليهود من جديد، بعد اكتشاف شبكة تجسس يهودية تعمل لصالح بريطانيا عرفت بشبكة NILI Spy Ring. ففي 4 أيلول/ سبتمبر 1917، ألقى الأتراك القبض على حمامة زاجلة تحمل رسالة رمزية. وحُولت الرسالة إلى السلطات العسكرية فُحلت رموزها، وتبين أنها مرسلة إلى شبكة التجسس في مستعمرة زخرون يعقوب اليهودية قرب عتليت. وبعد ذلك بعشرة أيام ألقى القبض على نامان بلكند Naaman Belkind أحد أفراد الشبكة وهو يحاول العبور إلى الخطوط البريطانية جنوب بئر السبع. ووجدت معه قائمة بأسماء أعضاء الشبكة وخططهم.

وانتهز الصهاينة زيارة الجنرال فون فالكنهاين Von Falkenhayn رئيس البعثة العسكرية الألمانية في الدولة العثمانية إلى القدس في 5 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917، وتوسلوا إليه أن يأمر بتخفيف إجراءات المراقبة المفروضة عليهم. غير أن جمال باشا لم يبقَ في قيادة الجيش العثماني الرابع إلا أياماً معدودة، إذ نقل منها وحل محله محمد جمال باشا الصغير الذي أشرف على محاكمة أعضاء شبكة نيلي في دمشق<sup>(40)</sup>. وقد بيّنا في ما سبق كيف نجحت الضغوط الصهيونية والألمانية في الحصول على تصريح (حديث) مع الصدر الأعظم طلعت باشا أثناء زيارته إلى برلين (في 2 كانون الثاني/ يناير 1918)، متمثل بالتعاطف مع الأماني الصهيونية وإزالة جميع القيود التي تعرقل هجرة اليهود إلى فلسطين. وبعد عودته إلى فلسطين، استدعى طلعت باشا النائب اليهودي في البرلمان العثماني (مجلس المبعوثان) قره صو، وتباحث معه حول مطالب الحركة الصهيونية، وهي تتلخص فيما يلي:

✻ المساواة القانونية والفعالية في الحقوق والواجبات بين اليهود والرعايا العثمانيين.

✻ الحرية الدينية لليهود.

✻ الحق في الهجرة الحرة والنشاط الاقتصادي في أرجاء الدولة العثمانية كافة.

✻ الحق في الهجرة من دون قيود إلى فلسطين، وقيام استقلال ثقافي لليهود فيها.

39 المرجع نفسه، ص 168-169.

40 المرجع نفسه، ص 168-170.

تحسّس قره صو وألف لجنة من عشرين عضوًا يمثلون مختلف الاتجاهات اليهودية لدراسة البرنامج، ووضع خطة عملية لتنفيذه. قامت هذه اللجنة، بعد مناقشات طويلة، بتقديم مشروع للصدر الأعظم ينص على إنشاء شركة ذات امتياز في إسطنبول تفوّض من الحكومة العثمانية بمنح الحكم الذاتي للمناطق المأهولة من اليهود. وبموجب هذا الامتياز تتولى الشركة جمع الضرائب وتأليف قوات من الشرطة وإدارة البلديات. وافق طلعت باشا على المشروع، ووعد قره صو ولجنته بأن تتبناه الحكومة العثمانية عند بحث شروط الصلح<sup>(41)</sup>.

وبينما كان حاييم وايزمان يتجول في فلسطين، خلال نيسان/ أبريل-تموز/ يوليو 1918، ويسعى لإنشاء الجامعة العبرية في القدس، كان وفد يهودي ألماني يستعد للسفر إلى إسطنبول للتفاوض مع الحكومة العثمانية حول مستقبل فلسطين. وتألّف الوفد من فيكتور ياكوبسون Victor Jacobson وأرثر روبين Arthur Robin من اللجنة التنفيذية الصهيونية، وبرنار كان Bernard Kahn من جمعية الإغاثة اليهودية، وماكس غرينفالد Max Gruenwald عن يهود النمسا، وموزس أورباخ Moses Auerbach، وإيزاك بروير Isaac Breuer، والحاخام ماركوس هوروفيتز، والحاخام بيرلموتر Perlmutter، عن اليهود الأرثوذكس. قابل الوفد الصدر الأعظم طلعت باشا، وطالب بإقامة مركز يهودي في فلسطين عن طريق الهجرة والاستعمار المنظمين. غير أن طلعت باشا أوضح للوفد تعاطفه مع اليهود، ووعدهم بتحقيق بعض مطالبهم. وصدر في أعقاب هذا اللقاء بيان رسمي في 14 تموز/ يوليو 1918، جاء فيه ما يلي: "وخلال لقاء فخامة الصدر الأعظم بالوفد أعرب له عن تعاطفه نحو هذا العمل. واقتناعًا منه بالأهمية والفائدة التي قد تجنيها الدولة العثمانية من استقرار اليهود في فلسطين، رغب في أن يحظى هذا العمل بحماية الدولة العثمانية وبتشجيعها بكل الوسائل التي تتفق وحقوق السيادة للدولة العثمانية، ودون الإضرار بحقوق السكان غير اليهود. وسوف يصدر فخامته الأوامر القاطعة بإلغاء جميع القيود المفروضة على هجرة اليهود واستيطانهم في فلسطين. ولأجل أن يضمن الشعب اليهودي فيها، انسجامًا مع التقاليد العثمانية، معاملة جيدة تقوم على قاعدة المساواة التامة مع العناصر الأخرى، سيقوم فخامته بتعيين لجنة خاصة لإعداد برنامج مفصل لهذا العمل بأسرع وقت ممكن".

وتشكلت اللجنة الوارد ذكرها في هذا البيان برئاسة الوزير مدحت شكري. وقد علّق السفير الألماني في إسطنبول البارون فون بيرنشتورف على تشكيل هذه اللجنة بقوله: "سوف يرينا المستقبل أن هذه اللجنة لن تنتهي إلى أي شيء سوى دفن الآمال الصهيونية". كان السفير الألماني مقتنعًا بأن الحكومة العثمانية غير جادة في كل ما جاء في بيانها السابق الذكر. فلماذا إذاً أقدمت على هذه التنازلات؟ ولماذا أصدرت بيانًا قريبًا في محتواه من تصريح بلفور؟ ربما كان تدهور الوضع العسكري العثماني على جميع الجبهات، وفقدان معظم فلسطين سببًا في ذلك. وربما اعتقدت الحكومة العثمانية أن تحقيق بعض المطالب اليهودية قد يجعل وضعها أفضل في مؤتمر الصلح المقبل. لا شك في أن ضعف النفوذ الأدبي العربي في إسطنبول بعد إعلان الثورة العربية الكبرى قد شجّع الحكومة العثمانية على إصدار هذا البيان. ولا يُستبعد أن يكون للضغوط الرسمية الألمانية أثرها الفعال في دفع الحكومة العثمانية إلى هذا الموقف، وذلك لإبطال مفعول تصريح بلفور، والحفاظ على علاقات ودية مع المنظمة الصهيونية؛ من أجل خدمة أغراض السياسة الخارجية الألمانية<sup>(42)</sup>.

#### 4. صدح التصريح في الأوساط العربية

أعني بالأوساط العربية في هذا الموضوع أربع جهات، هي: عرب فلسطين، والنواب العرب في "مجلس المبعوثان"، والمتفقون السوريون (الشوام) في مصر الذين كانوا على اتصال بدار المندوب السامي البريطاني والمكتب العربي (دائرة الاستخبارات العسكرية البريطانية) في القاهرة، وقيادة الثورة العربية الكبرى (الملك حسين بن علي وأبناؤه).

41 المرجع نفسه، ص 174-175.

42 المرجع نفسه.



## أ. الصدى لدى أهالي فلسطين والنواب العرب في مجلس المبعوثان

شعر أهالي فلسطين بخطورة الهجرة اليهودية إلى بلادهم في مرحلة مبكرة؛ ذلك أنهم بعثوا، عام 1891، ببرقيات إلى الصدر الأعظم العثماني يطالبون فيها بمنع هجرة اليهود إلى البلاد. وكان شكري العسلي قائم مقام الناصرة، من أوائل المسؤولين العرب الذين أدركوا خطر الصهيونية ومشروعها الاستعماري في فلسطين، ولكن من دون أن يعرف حقيقة الحركة الصهيونية ونشاطها الواسع في أوروبا والولايات المتحدة، وفي الدولة العثمانية نفسها. بعث العسلي برسالة إلى سامي باشا الفاروقي، قائد الحملة العسكرية لتأديب أهالي حوران والكرك، عام 1910، جاء فيها: "إن الجمعية الصهيونية ورفيقاتها جمعيات البيكا وفاغولين والأليانس<sup>(43)</sup> وغيرها تسعى إلى استرجاع فلسطين التي وعدهم بها ربهم في الإصحاح الثاني والثلاثين من الكتاب المقدس، والآن عملاً بهذه الآية يشترون الأراضي في فلسطين على حساب الفضة، ويشترطون البيع على أن يكون الثمن فضة، ويكتبون الصكوك ويشهدون"<sup>(44)</sup>.

ولما أصبح العسلي نائباً عن دمشق في "مجلس المبعوثان" في مطلع عام 1911، أثار المسألة الصهيونية في المجلس المذكور، وحذّر أعضاء المجلس من الخطر الصهيوني، وألّف العسلي قوة ضاغطة منه ومن روجي الخالدي نائب القدس ورياض الصلح نائب بيروت للضغط على حكومة الاتحاد والترقي؛ من أجل سن قوانين لوقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين والاستيطان فيها. وساهم نائب غزة حافظ السعيد في مناقشات "مجلس المبعوثان" حول أخطار الصهيونية. وكانت استجابة النواب الأتراك ضعيفة لما طالب به النواب العرب. وكتب العسلي في صحيفة **المقتبس** الدمشقية في 25 حزيران/ يونيو 1911: "العرب والسوريون في غضب على أولئك الذين يسهلون لليهود والصهيونيين الساعين في احتلال فلسطين وسورية والعراق ليؤسسوا حكومة يهودية". واستمر العسلي والنواب العرب في الكشف عن النيات الحقيقية للحركة الصهيونية في البرلمان العثماني<sup>(45)</sup>.

وقد أدرك عرب فلسطين خطورة الهجرة اليهودية إلى بلادهم، بعد أن اتخذت شكلاً منظماً وكتيماً في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. وقاد طاهر الحسيني، مفتي القدس، المقاومة الفلسطينية لهجرة اليهود الكثيفة إلى المدينة المقدسة، معتبراً ذلك تحدياً يهدف إلى تهويد المدينة وإزالة قداستها الإسلامية. وكان مفتو القدس السابقون من آل الحسيني قد اعترضوا على محاولات حماية اليهود وتشجيعهم على الإقامة في القدس من قبل القنصل البريطاني جيمس فين James Finn فيها في عقدي الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر<sup>(46)</sup>.

ولعل أول من أشار إلى أطماع الصهيونية في فلسطين هم الرهبان الكاثوليك الذين كانوا يتابعون باهتمام وقلق النشاط الصهيوني. فقد نشر الأب هنري لامنس اليسوعي مقالة في مجلة **المشرق** عام 1899 بعنوان "اليهود في فلسطين ومستعمراتهم"، عرض فيها المستعمرات اليهودية ونشأتها والجمعيات والأفراد الذين يدعمونها مالياً. وحذّر في ختام مقالته من الأطماع اليهودية في شرق الأردن وقال: "هذا ولم يزل اليهود يطمحون ببصرهم نحو عبر الأردن. ولما اجتزنا منذ ثلاث سنين في تلك الأقطار، أخبرنا مختار مكيس [أم قيس] أن للبارون دو روتشيلد عمالاً في تلك النواحي يطوفونها في كل جهاتها ليمتلكوا أراضي يجعل فيها اليهود ليفلحوا ويستغلوا خيراتها"<sup>(47)</sup>.

43 أنشئت جمعية PICA عام 1883 برعاية المصري اليهودي إدmond روتشيلد لشراء الأراضي في فلسطين، انظر: فدوى نصيرات، دور السلطان عبد الحميد الثاني في تسهيل السيطرة الصهيونية على فلسطين، 1876-1909 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2010)، ص 145.

44 سهيلا سليمان الشلبي، شكري العسلي، 1868-1916: من أجل الاستقلال العربي ومقاومة الصهيونية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2010)، ص 145.

45 المرجع نفسه، ص 146-157.

46 جيمس فن، أزمنة مثيرة: وقائع من سجلات القنصلية البريطانية في بيت المقدس، 1853-1856، ترجمة جمال أبو غيدا (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2017).

47 علي محافظة، الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن (بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، 1987)، ص 124.

وكانت أولى الصحف العربية في فلسطين التي تبنت إلى الخطر الصهيوني صحيفة الكرمel منذ صدورها عام 1908، وتلتها في هذا الشأن صحيفة فلسطين. وقد دعت الكرمel إلى إنشاء "جمعية وطنية فلسطينية" تضم أعيان نابلس والقدس ويافا وحيفا وغزة لشراء أراضي الدولة (الأراضي المدورة) قبل أن يستولي عليها الصهاينة. ومنذئذ أصبحت هذه القضية شغل الصحافة الوطنية الشاغل، قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى. وعبر إسعاف الشاشبي عن قلقه إزاء الخطر الصهيوني شعراً ونشره في مجلة النفائس العصرية، في تشرين الأول/أكتوبر 1910، نقتطف منه ما يلي:

يا فتاة الحي جودي بالدماء	بدل الدمع إذا رُمت البكاء
فلقد ولت فلسطين ولم	يبق يا أخت العُلا غير ذمء
نكبت أقدامها سبل الهدى	فشرتها للعدا شرَّ شراء
سوف تشكين وتبكين دماً	يوم لا يجدي ولا يغني البكاء
إن الاستعمار قد جاز المدى	دون أن يعدوه عن سير عداء
إنها أوطانكم فاستيقظوا	لا تبيعوها لقوم دخلاء

وقام عضو الهيئة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية ناحوم سوكولوف بزيارة سورية وفلسطين في نيسان/أبريل 1917 لتهدئة مخاوف العرب. ودامت زيارته ثلاثة أشهر التقى خلالها عدداً من زعماء الحركة القومية العربية؛ ومنهم شكري العسلي، ومحمد كرد علي، وعبد الوهاب الإنكليزي، وجورج فاخوري. وسهّل له مهمته نظيف بك الخالدي، أحد أعيان القدس. واتفق هؤلاء مع سوكولوف على عقد مؤتمر عربي - صهيوني تمهيدي في برمانا بلبنان، في 2 تموز/ يوليو 1914، بمشاركة عشرة مندوبين من كل طرف. غير أن والي بيروت العثماني لم يوافق على عقد المؤتمر المذكور. وانقطعت الاتصالات بين هؤلاء المثقفين العرب والصهاينة مع اندلاع الحرب العالمية الأولى.

كانت ردة فعل أهالي فلسطين على تصريح بلفور ضعيفة، ولذلك أسباب أوردتها الأديب والمفكر المقدسي خليل السكاكيني في مقال له بعنوان "ماذا فهم العرب من وعد بلفور؟" نشرته صحيفة السياسة المصرية في 1 حزيران/ يونيو 1923، جاء فيه: "إن العرب كانوا من الضعف والإعياء لا يستطيعون معهما أن يهتموا بشيء، وإنهم قدروا أن الوعد قد صدر لضرورات حربية اقتضتها أوضاع الحرب العالمية الأولى، فإذا زالت تلك الضرورات سقط الوعد من تلقاء نفسه، وأنهم كانوا يعرفون بوعود بريطانيا للعرب والتي سبقت وعد بلفور، كما توهموا أن الأمة البريطانية أعلى من أن ترضى بمثل هذه الخيانة لقضية العرب. ولذا فلا بد أن تنكر على حكومتها هذه السياسة الخرقاء. واعتقد العرب بقدرتهم على إبطال وعد بلفور متى تنفسوا الصعداء، ووقفوا على أقدامهم بعد انتهاء الحرب. كما ذهب بعضهم إلى الظن أن اليهود أعجز من أن ينالوا فلسطين، ما دامت الأمة العربية حيّة واعية. كما تصوروا أن الوعد أقرب إلى الخيال والحلم منه إلى الحقيقة، وأن اليهود متى ثابوا إلى رشدهم وأدركوا المصاعب والمتاعب التي ستواجههم في فلسطين وفي غيرها من أقطار الدنيا تراجعوا وتخلوا عنه. وقدّر العرب أيضاً أن فلسطين لن تتسع لليهود، وأن الوطن القومي لا يُشتري بالمال ولا يُنال بالدسائس والدعاية والمؤامرات السياسية"<sup>(48)</sup>.

وما إن شعر العرب بالنشاط اليهودي المنظم في فترة الاحتلال العسكري البريطاني (1917-1920) وممالأة الإنكليز لليهود، حتى أسرعوا إلى إنشاء الجمعيات الإسلامية - المسيحية في مدن فلسطين الكبرى في عامي 1918 و1919، بهدف مقاومة قيام وطن قومي يهودي في بلادهم. وكانت هذه الجمعيات حجر الأساس الذي قامت عليه الحركة الوطنية الفلسطينية، والتي اتخذت شكلها المنظم

48 علي محافظة، "الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للحرب العالمية الأولى على فلسطين والأردن"، في: مجموعة مؤلفين، الطريق إلى سايكس-بيكو: الحرب العالمية الأولى بعيون عربية، رشيد خشانة (محرر)، (الدوحة/ بيروت: مركز الجزيرة للدراسات/ الدار العربية للعلوم ناشرون، 2016)، ص 80.

بانعقاد المؤتمر العربي الفلسطيني الأول في القدس في 27 كانون الثاني/يناير 1919<sup>(49)</sup>. وكان من أسباب عقد هذا المؤتمر النظر في نتائج تصريح بلفور على فلسطين. وكان أول قرار اتخذته المؤتمرون إرسال برقية إلى مؤتمر الصلح في باريس للاحتجاج على "ما سمعوه من جعل بلادهم وطنًا قوميًا لليهود ومنحهم حق الهجرة والاستعمار، وأنهم سيرفعون إلى المؤتمر تقاريرهم المؤيدة بالبراهين والمثبتة حق أقلية اليهود القليلة جدًا مالا ونفوسًا وأملًا".

واحتوت المذكرة الأولى التي بعث بها المؤتمرون إلى مؤتمر الصلح أربعة بنود: تضمن أولها دحضًا تاريخيًا ودينيًا لمزاعم اليهود في التاريخ، واحتوى ثانيها رفضًا قاطعًا لتصريح بلفور. أما البند الثالث، فردّ على ادعاءات الصهاينة بأنهم يطلبون فلسطين باعتبارهم من الشعوب الضعيفة التي وعدّها الحلفاء بالحريّة. واحتوى البند الرابع على بيان بالأملك والعقارات التي يملكها اليهود في فلسطين ولا تتجاوز نسبتها واحدًا إلى أربعين (أي 2.5 في المئة)، بينما لا تتجاوز نسبة اليهود تسعة في المئة من مجموع السكان<sup>(50)</sup>.

## ب. الصدى لدى السوريين في مصر

وصل نبأ تصريح بلفور إلى مصر أولاً، فأثار موجة من الاحتجاج لدى السياسيين والمنتقنين السوريين فيها، ومنها انتقل إلى فلسطين، وسعت القيادة العسكرية البريطانية لإخفاؤه. وما إن حل ربيع عام 1918 حتى كاد شعور المسؤولين والمنتقنين العرب يدمر التحالف العربي - البريطاني. وتألّفت هيئة من سبعة أشخاص من السياسيين والمنتقنين السوريين في مصر من أجل العمل المشترك للقضية العربية، بعد أن ترعزت ثقتهم بالحلفاء. فقدّموا مذكرة للحكومة البريطانية صوروا فيها الوضع كما رأوه. وطلبوا منها إيضاح سياستها نحو البلاد العربية بعامة، ونحو سورية وفلسطين والعراق بخاصة، ومصير هذه الأقطار بعد الحرب. وسُلمت هذه المذكرة إلى المكتب العربي في القاهرة ليتولى نقلها إلى لندن.

ردت وزارة الخارجية البريطانية على مذكرة السوريين السبعة، في 16 حزيران/يونيو 1918، وأرسلت نسخة من هذا الرد إلى الملك حسين بن علي. قسمت وزارة الخارجية البلاد العربية الآسيوية، وهي التي طالب الشريف الحسين بن علي بحريتها واستقلالها ووحدها، إلى أربعة أقسام؛ استنادًا إلى الموقف العسكري آنذاك. يشمل القسم الأول البلاد العربية التي كانت حرة ومستقلة قبل الحرب، بينما يشمل القسم الثاني الأراضي التي حُررت من السيطرة التركية بجهد العرب أنفسهم. ويشمل هذان القسمان شبه جزيرة العرب من عدن حتى العقبة، وتعتزف الحكومة البريطانية بـ "الاستقلال التام والسيادة للعرب الذين يقطنون هذه الأراضي". ويضم القسم الثالث البلاد العربية التي حررت من الحكم التركي على يد الجيوش المتحالفة. ويشمل العراق من الخليج العربي إلى خط يمتد على مسافة إلى الشمال من بغداد، وفلسطين من الحدود المصرية إلى خط على مسافة إلى الشمال من القدس وبافا، وقالت الحكومة البريطانية: "إن الحكومة المقبلة لهذه الأقاليم يجب أن تقوم على مبدأ موافقة المحكومين"، وأكد الرد البريطاني أن هذه السياسة ستظل دائمًا هي السياسة التي ستتتبعها الحكومة البريطانية. أما القسم الرابع، فهو يشمل المناطق العربية التي كانت ما تزال تحت الحكم التركي. ويضم هذا القسم معظم سورية وولاية الموصل في العراق. وقد أكد الرد البريطاني "أن الشعوب المضطهدة في هذه الأراضي يجب أن تفوز بالحريّة والاستقلال".

أكد الرد البريطاني نقطتين تتعارضان كليًا مع اتفاقية سايكس-بيكو وتصريح وعد بلفور، هما:

49 علي محافظة، الفكر السياسي في فلسطين في نهاية الحكم العثماني حتى نهاية الانتداب البريطاني، 1918-1948، ط 2 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002)، ص 213-218.

50 المرجع نفسه، ص 135.

1. إن بريطانيا ستظل تعمل لتتال سورية وفلسطين والعراق حريتها واستقلالها، فضلاً عن تحريرها من الحكم التركي.
  2. تعهدت بريطانيا بأنها لن تقيم في هذه البلاد أي نظام من أنظمة الحكم لا يقبل به السكان فيها.
- لا شك في أن هذا الرد الرسمي من الحكومة البريطانية أهم كثيراً من التطمينات التي أدلى بها مارك سايكس وديفيد هوغارث David Hogarth إلى الملك حسين أثناء لقاءتهما به في أعقاب إبرام اتفاقية سايكس-بيكو وتصريح بلفور.
- وعمّت عرب آسيا موجة من الاغتياب عندما ذاعت محتويات الرد البريطاني على مذكرة الزعماء السوريين السبعة.
- وبعد بضعة أسابيع من إذاعة هذا البيان البريطاني، ألقى الرئيس الأميركي وودرو ويلسون خطابه في مونت فرتون Mount Vernon، في 4 تموز/ يوليو 1918، وقد أعلن فيه أن تسوية ما بعد الحرب ستكون مبنية على "القبول الطوعي لدى الشعوب التي تعنيها التسوية مباشرة". وكان لهذين الوعدين البريطاني والأميركي أثرهما الحاسم في تبديد الشكوك والمخاوف التي أثارتها اتفاقية سايكس-بيكو وتصريح بلفور<sup>(51)</sup>.

### ج. الصدى لدى الحسين بن علي وأنجاله

كان أول المعنيين بتصريح بلفور الحسين بن علي، ملك الحجاز، وأنجاله قادة قوات الثورة العربية الكبرى، وكان الحسين في مراسلاته مع هنري مكماهون Henry MacMahon، المندوب السامي البريطاني في مصر، قد طالب باعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية في آسيا وقيام مملكة عربية واحدة تشملها. ووافق مكماهون في رده على رسالة الشريف حسين، في 29 آب/ أغسطس 1915، على مطالب الحسين بقوله: "نؤكد لكم نص رسالة اللورد كيتشنر Lord Kitchener التي تضمنت رغبتنا في استقلال البلاد العربية وسكانها، مع موافقتنا على الخلافة العربية حينما يجب إعلانها"، وجاء في الرسالة نفسها بشأن مسألة حدود الدولة العربية: "أما بشأن مسألة الحدود، فيبدو من السابق لأوانه إشغال وقتنا في بحث تفاصيل كهذه في حمى الحرب". وبطبيعة الحال، كانت فلسطين جزءاً من الدولة العربية التي طالب بها الحسين ووافق عليها مكماهون وقبله اللورد كيتشنر. رد الحسين على رسالة مكماهون هذه غاضباً، في 9 أيلول/ سبتمبر 1915، باعتباره زعيماً لحركة ثورية منظمة، وأكد له في رده هذا أن الحدود التي أشار إليها ضرورية لصالح الدولة العربية المقبلة. وقال فيها أيضاً إنه ليس هو شخصياً الذي يطالب بهذه الحدود التي تشمل الجنس العربي، ولكنها كلها مطالب الشعب الذي يؤمن بأنها ضرورية لحياته الاقتصادية<sup>(52)</sup>.

لما علم الملك حسين، ملك الحجاز، بتصريح بلفور استوضح من المسؤولين البريطانيين في جدة والقاهرة عن حقيقة هذا التصريح، وجاء إليه هوغارث، رئيس المكتب العربي في القاهرة (جهاز الاستخبارات العسكرية البريطانية في الشرق الأوسط)، وقابله في جدة بين 8 و14 كانون الثاني/ يناير 1918، عشر مرات لم تقل مدة كل منها عن ساعة ونصف الساعة. وقد قرأت تقريره عن هذه الزيارة والمقابلات العشر التي أجراها مع الملك حسين، ونُشر في النشرة التي يصدرها المكتب العربي<sup>(53)</sup>، في صفحات ثلاث، فلم أجد فيه ما يشير إلى الحجج التي استعملها هوغارث ووسائل الإقناع (أي أساليب الخداع والتضليل التي لجأ إليها المسؤول الأول عن الاستخبارات العسكرية البريطانية في الشرق الأوسط) للقبول بتصريح بلفور.

لا شك في أن هوغارث قد استعمل مختلف أساليب الخداع والتضليل لإقناع الملك حسين بقبول تصريح بلفور، طوال ستة أيام التقى به خلالها عشر مرات (دامت هذه اللقاءات نحو عشرين ساعة)، والدليل على أن الملك العربي خُدع وُضّل؛ أنه فوجئ عند انتهاء

51 جورج أنطونيوس، يقظة العرب: تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، ط 8 (بيروت: دار العلم للملايين، 1987)، ص 375-382.

52 Schneer, pp. 59-60.

53 David Hogarth, "Mission to King Hussein," *Arab Bulletin*, no. 77 (January 27, 1918), pp. 21-24.

الحرب العالمية الأولى بفرض الانتداب البريطاني على فلسطين والعراق، ورفض ذلك رفضاً قاطعاً. كما رفض إبرام معاهدة مع بريطانيا تنص على اعترافه بما تم في مؤتمر الصلح في باريس. واستمرت هذه المفاوضات بين الملك حسين وبريطانيا أربع سنوات (1921-1924)، انتهت بالفشل، وأسفرت عن تخليه عن عرشه وسوقه إلى قبرص منفياً تحت الحكم البريطاني حتى قرب أجله عام 1931.

كان الحسين وأنجاله الأربعة، مثل بقية المسؤولين والمتقنين العرب يجهلون حقيقة الحركة الصهيونية ومخططاتها في فلسطين، ولا يعرفون شيئاً عن نشاط هذه الحركة في عواصم الدول الأوروبية الكبرى وفي أوساط الحكام العثمانيين. وكل ما عرفوه ما نقله إليهم ضباط الاستخبارات البريطانيين في المنطقة العربية. ولعل المقال الافتتاحي الوارد في العدد 183 من صحيفة القبلة الناطقة بلسان الثورة العربية الكبرى والمملكة الحجازية، الصادر في يوم الخميس 13 شعبان 1336هـ الموافق 15 أيار/ مايو 1918، يدل على مدى جهل المسؤولين عن الإعلام في الثورة العربية الكبرى والمملكة الحجازية بحقيقة الهجرة اليهودية إلى فلسطين. فالمقال الافتتاحي يشيد بجهد مراسل صحيفة المقطم المصرية الذي زار فلسطين أثناء وجود وفد صهيوني فيها برئاسة حاييم وايزمان لإقناع عرب فلسطين بجدوى الهجرة اليهودية إلى بلادهم وإزالة مخاوفهم بعد صدور تصريح بلفور.

وقد زوّد مراسل المقطم صحيفته بتقارير عن "المستعمرات الإسرائيلية في فلسطين"، أتى فيها على المشروعات الزراعية اليهودية، وحثّ عرب فلسطين على تقليد اليهود في هذا المضمار<sup>(54)</sup>.

لم تكتفِ بريطانيا بتضليل الملك حسين، وإنما أرسلت بعثة صهيونية برئاسة حاييم وايزمان إلى فلسطين في ربيع عام 1918، لإقناع أهلها بقبول المشروع الصهيوني. ولما التقى وايزمان وبعثته بأعيان القدس، في 27 نيسان/ أبريل 1918، قال لهم: "يرغب الصهاينة في خلق ظروف يتم فيها التطور الأخلاقي والقومي للشعب اليهودي الذي اختار بحرية القدوم إلى فلسطين. وهذا التطور لا يكون على حساب أي جماعة من الجماعات المقيمة في البلاد أو مخالفاً لمصالحهم، ولن يكون كذلك. كل المخاوف المعبر عنها علناً أو سراً من قبل العرب تُعزى إلى سوء الفهم الأساسي للأهداف والنيات الصهيونية، أو النشاطات الشريرة لأعدائهم المشتركين"<sup>(55)</sup>.

سافر وايزمان من القدس إلى العقبة للقاء الأمير فيصل بن الحسين، قائد جيش الثورة العربية الكبرى الشمالي، فالتقى به في معسكر وهيدة. وحضر اللقاء الكولونيل جويس Col. Joyce من ضباط المكتب العربي في القاهرة الملحقين بجيش فيصل، بصفته مترجماً. وجاء في تقرير جويس إلى المكتب العربي ما يلي: "تم الاجتماع بين الأمير فيصل والدكتور وايزمان في الرابع من حزيران/ يونيو 1918 في وهيدة، كان الكولونيل جويس حاضراً ويعمل مترجماً. فالكولونيل لورنس كان غائباً في منطقة العمليات الشمالية في ذلك الوقت، وحال المرض دون وجود الميجور أورمسيي جور Major Ormsby Gore ودون سفره مع الوفد (الصهيوني). كان الاجتماع ودياً، ويبدو أنه أدى إلى ارتياح متبادل. واتفق الطرفان على أن التعاون الوثيق بين اليهود والعرب ضروري وفي مصلحة كل منهما إذا توافر الاستقلال الثابت في البلاد الناطقة بالعربية. ولكن الأمير فيصل امتنع عن الدخول في إصدار بيان عن الترتيبات السياسية الدقيقة التي يفكر فيها، وردّ (على طلب وايزمان) بأن والده وحده القادر على إصدار مثل هذه البيان. وأخبره الدكتور وايزمان أن اليهود لا يبنون إقامة حكومة لهم وإنما يطمنون العمل تحت الحماية البريطانية لاستعمار فلسطين وتطويرها، آخذين في الاعتبار المصالح المشروعة القائمة. رد فيصل أنه في ضوء الاستعمال الخطر من قبل دعاية العدو لأي بيان من جانبه بشأن أي أرض عربية تسيطر عليها أيدي غير عربية، سوف يبدي رأيه الشخصي الذي يتمثل بأن رغبة الدكتور وايزمان ليست قابلة للتحقيق، وأنه يرحب بالعرض الأخير المتعلق بتمثيل أهداف العرب واليهود في أميركا. وأعرب فيصل عن أمله في لقاء آخر فيما بعد. والحصيلة العملية لهذا اللقاء ليست أكثر من التعارف المتبادل بين زعيم الاتحاد

54 "الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها"، صحيفة القبلة، 13 شعبان 1336هـ، 1918/5/15.

الصهيوني والزعيم العربي الذي من المحتمل أن يكون له دور مثل أي شخص آخر في تكوين المصير السوري. ونشأ احترام متبادل بينهما، وحينما يأتي وقت التفاوض سيبدأ الفريقان بفكرة ما عن قيمة كل منهما والهدف الذي يسعيان له<sup>(56)</sup>.

كان فيصل، مثل والده، لا يعرف شيئاً عن الحركة الصهيونية وبرنامجها ونشاطاتها، ولم يُدَلَّ أي من ضباط الاستخبارات العسكرية البريطانية المرافقين له؛ بمن فيهم توماس إدوارد لورنس الذي كان يرافقه كظله، بأي معلومات صحيحة عن الحركة الصهيونية وبرنامجها ونشاطاتها.

بعث مارك سايكس برسالة إلى الأمير فيصل، في 3 آذار/ مارس 1918، جاء فيها: "أعرف أن العرب يحتقرون اليهود ويدينونهم ويكرهونهم. ولكن العاطفة والتعصب يدمران الأمراء والشعوب، وأولئك الذين اضطهدوا اليهود أو دانوهم يخبرونك القصة. فإمبراطورية إسبانيا في أيامنا تريننا طريق الدمار الذي أدى إليه اضطهاد اليهود. قد تقول لنفسك: ما هو هذا العرق المحتقر والمنيذ والممقوت الذي لا يستطيع القتال والذي لا وطن له وليس له أمة؟ يا فيصل، أستطيع قراءة ما في قلبك وما في عقلك. هناك مستشارون حولك قد يوششون بأشياء مماثلة في أذنيك. صدقني، إنني أقول الحقيقة حينما أقول إن هذا العرق المحتقر والضعيف عالمي وقوي ولا يمكن إخضاعه"<sup>(57)</sup>.

كان سايكس يسعى لإقناع الأمير العربي بالتعاون مع الصهاينة. وردّ عليه فيصل برسالة، في 18 تموز/ يوليو 1918، جاء فيها: "أنا لا أحتقر أيًا كان بسبب دينه ولن أحتقره؛ لذلك وبوجه عام، أود أن أرحب بأي تفاهم طيب مع اليهود. ولكن لا أعرف ما يجري، ولا أعرف أساس الترتيب المُنوي عمله في فلسطين لليهود والعرب"<sup>(58)</sup>.

كان فيصل، إذًا، يجهل نيات البريطانيين في فلسطين، وتفاصيل المفاوضات بين مجلس الحرب البريطاني والقادة الصهاينة.

انتهت الحرب العالمية الأولى في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918، وكُلّف الأمير فيصل بن الحسين بتشكيل مملكة الحجاز في مؤتمر الصلح الذي تقرر عقده في باريس. ووصل إلى لندن في أول زيارة له يقوم بها إلى أوروبا في 10 كانون الأول/ ديسمبر 1918. وأمضى فيها ثلاثة أسابيع، علم خلالها بحقيقة اتفاق سايكس-بيكو، وتعرض لضغوط شديدة من الحكومة البريطانية للتعاون مع الصهاينة في مؤتمر الصلح. وكُلّف لورنس بإقناع فيصل بإعطاء الصهاينة اعترافاً رسمياً بأراضيهم في فلسطين، نيابة عن مملكة الحجاز. وكان الصهاينة وعلى رأسهم حاييم وايزمان في أمس الحاجة إلى هذا الاعتراف لتقديمه إلى مؤتمر الصلح. كان مطلب الحكومة البريطانية والحركة الصهيونية خارج مهمة فيصل التي كلفه بها والده. وحاول فيصل أن يحصل على توجيهات من والده، غير أن والده أصر على أنه لا يرضى بشيء من دون إنجاز العهد التي قطعتها بريطانيا المتمثلة باستقلال البلاد العربية ووحدتها. شعر فيصل بالحرج والقلق الشديدين وزادهما شدة جهله باللغتين الإنكليزية والفرنسية، وبأساليب الدبلوماسية الأوروبية. واقتنع بعداء الفرنسيين له ورفضه ممثلاً للحجاز في مؤتمر الصلح، وبصداقة الإنكليز الذين أصرّوا على صحة تمثيله هو والوفد المرافق له في مؤتمر الصلح. وأقنعه لورنس ألاّ ضرر من إبرام الاتفاق مع الصهاينة شريطة الاعتراف الكامل بمطالب العرب من طرف بريطانيا.

وَقَّع فيصل اتفاهه مع حاييم وايزمان، في 3 كانون الثاني/ يناير 1919، واشتمل الاتفاق على النقاط التالية:

1. يجب أن يسود جميع علاقات والتزامات الدولة العربية وفلسطين أقصى النيات الحسنة والتفاهم المخلص، وللوصول إلى هذه الغاية تؤسس وكالات عربية ويهودية معتمدة، بحسب الأصول، في كل بلد منهما.

56 "Faisal and Weizmann," *Arab Bulletin*, no. 93 (June 18, 1918), p. 208.

57 Schneer, pp. 371-372.

58 *Ibid.*, p. 372.

2. بعد إتمام مشاورات مؤتمر السلام مباشرة، يتم تحديد الحدود النهائية بين الدول العربية وفلسطين من قبل لجنة يتفق الطرفان المتعاقدان على تعيينها.

3. عند إنشاء دستور إدارة فلسطين، تُتخذ جميع الإجراءات التي من شأنها تقديم أوفى الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية المؤرخ في اليوم الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر 1917.

4. يجب أن تُتخذ جميع الإجراءات لتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين على مدى واسع، والحث عليها بأقصى ما يمكن من السرعة، لاستقرار المهاجرين في الأرض عن طريق الإسكان الواسع والزراعة الكثيفة. وأثناء اتخاذ مثل هذه الإجراءات يجب أن تُحفظ حقوق الفلاحين والمزارعين المستأجرين العرب، ويجب أن يساعدوا في سيرهم نحو التقدم الاقتصادي.

5. يجب ألا يُسنَّ نظام أو قانون يمنع، بأي طريقة كانت، ممارسة الحرية الدينية والقيام بالعبادات أو يُتدخل في ذلك، من دون تمييز أو تفضيل، ويجب ألا يطالب قط بشروط دينية لممارسة الحقوق المدنية أو السياسية.

6. يجب أن توضع الأماكن الإسلامية المقدسة تحت رقابة المسلمين.

7. تقترح المنظمة الصهيونية أن ترسل إلى فلسطين لجنة من الخبراء لتقوم بدراسة الإمكانيات الاقتصادية في البلاد، وأن تقدم تقريراً عن أحسن الوسائل للنهوض بها، وستضع المنظمة الصهيونية اللجنة المذكورة تحت تصرف الدولة العربية من أجل دراسة الإمكانيات الاقتصادية في الدولة العربية، وأن تقدم تقريراً عن أحسن الوسائل للنهوض بها. وستستخدم المنظمة الصهيونية أقصى جهودها لمساعدة الدول العربية من خلال تزويدها بوسائل استثمار الموارد الطبيعية والإمكانيات الاقتصادية في البلاد.

8. يوافق الفريقان المتعاقدان على العمل بالاتفاق والتفاهم التامين في جميع الأمور التي شملتها هذه الاتفاقية لدى مؤتمر الصلح.

9. كل نزاع قد يثار بين الفريقين المتنازعين يجب أن يحال على الحكومة البريطانية للتحكيم.

وجاء في تحفظات الأمير فيصل في نهاية الاتفاقية باللغة العربية، ما يلي:

"يجب أن أوافق على المواد المذكورة أعلاه بشرط أن يحصل العرب على استقلالهم، كما طلبت بمذكري المؤرخة في الرابع من شهر [كانون الثاني]/يناير سنة 1919 المرسلة إلى وزارة خارجية بريطانيا العظمى. لكن إذا وقع أقل تعديل أو تحويل فيجب أن لا أكون عندها مقيداً بأي كلمة وردت في هذه الاتفاقية التي يجب اعتبارها ملغاة لا شأن ولا قيمة قانونية لها، ويجب أن لا أكون مسؤولاً بأية طريقة مهما كانت"<sup>(59)</sup>.

يتضح من نص هذه الاتفاقية أنها لم تكن حصيلة مفاوضات بين طرفين متساويين، وإنما هي اتفاقية فرضت على الأمير فيصل فرضاً فوقّعها، وإلى جانب توقيعها وضع بخط يده شروطه بالعربية.

خلاصة القول، إن العرب - نتيجة جهلهم بالحركة الصهيونية - كانت ردود فعلهم على تصريح بلفور مشتتة ومترددة وضعيفة. ولعل الفارق الحضاري والثقافي والمعرفي المتعلق بشؤون العالم والعلاقات الدولية، لا سيما بين الدول الكبرى، كان كبيراً جداً بين العرب والصهيانية. فقد كان العرب يجهلون العلاقات الدولية والحركة الصهيونية جهلاً تاماً، بينما كان الصهيانية على معرفة دقيقة وواسعة بهذه العلاقات وبصنّاع القرار السياسي في كل دولة كبرى، وعلى اتصال مباشر بهم، وكذلك سعوا لكسب تأييدهم لمشروعهم الاستعماري الاستيطاني، ونجحوا في ذلك.

## المراجع

### العربية

- أنطونيوس، جورج. **يقظة العرب: تاريخ حركة العرب القومية**. ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس. ط 8. بيروت: دار العلم للملايين، 1987.
- الشلبي، سهيلا سليمان. **شكري العسلي، 1868-1916: من أجل الاستقلال العربي ومقاومة الصهيونية**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2010.
- فن، جيمس. **أزمة مثيرة: وقائع من سجلات القنصلية البريطانية في بيت المقدس، 1853-1856**. ترجمة جمال أبو غيدا. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2017.
- مجموعة مؤلفين. **الطريق إلى سايكس-بيكو: الحرب العالمية الأولى بعين عربية**، رشيد خشانة (محرر). الدوحة/ بيروت: مركز الجزيرة للدراسات/ الدار العربية للعلوم ناشرون، 2016.
- محافظة، علي. **العلاقات الألمانية-ال فلسطينية، 1841-1945**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981.
- \_\_\_\_\_. **الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن**. بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، 1987.
- \_\_\_\_\_. **موقف فرنسا وألمانيا وإيطاليا من الوحدة العربية، 1919-1945**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1985.
- \_\_\_\_\_. **الفكر السياسي في فلسطين في نهاية الحكم العثماني حتى نهاية الانتداب البريطاني، 1918-1948**. ط 2. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002.
- منصور، جوني. **مئوية تصريح بلفور (1917-2017): تأسيس لدولة وتأشيرة لاقتلاع شعب**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2018.
- نصيرات، فدوى. **دور السلطان عبد الحميد الثاني في تسهيل السيطرة الصهيونية على فلسطين، 1876-1909**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2010.

### الأجنبية

- "Faisal and Weizmann." *Arab Bulletin*. no. 93 (June 18, 1918).
- Hogarth, David. "Mission to King Hussein." *Arab Bulletin*. no. 77 (January 27, 1918).
- Schneer, Jonathan. *The Balfour Declaration: The Origins of Arab-Israeli Conflict*. London: Bloomsbury Publishing, 2011.
- Seltzer, Robert M. *Jewish People, Jewish Thought: The Jewish Experience in History*. New York and London: Macmillan Publishing Co./ Collier Macmillan Publishers, 1980.
- Stein, Leonard. *The Balfour Declaration*. Jerusalem and London: The Magnes Press, The Hebrew University/ The Jewish Chronicle, 1961.